بعض البعثات العلمية الشهيرة

تأليف: رايموند هولدن
ترجمة: الدكتور رشيد رمضان [illegible]

دار المعارف

بُعضُ البَعْثَاتِ العِلْمِيَّةِ الشَّهِيرَة

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية

القاهرة

الطبعة الأولى : سنة ١٩٦٥

الطبعة الثانية : سنة ١٩٦٦

الطبعة الثالثة : سنة ١٩٧٦

الطبعة الرابعة : سنة ١٩٨١

الطبعة الخامسة : سنة ١٩٨٩

الطبعة السادسة : سنة ١٩٩٢

كل شيء عن

(١٧)

بعض البعثات العلمية الشهيرة

تأليف

رايموند هولدن

ترجمة

الدكتور سيد رمضان هدارة

هذه الترجمة مرخص بها، وقد قامت الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق

This is an authorized translation of ALL ABOUT FAMOUS SCIENTIFIC EXPEDITIONS by Raymond Holden. Copyright . 1955 by Raymond Holden. First published by Random. House, Inc New York.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف: رايموند هولدن

شاعر متمكن وقصصى وكاتب سير. ولكنه فى هذا الكتاب يروى لنا خمسًا من القصص الواقعية عن أشهر الرحلات العلمية المثيرة فى التاريخ.

وخلال الحرب العالمية الأولى خدم هولدن بسلاح الفرسان على الحدود المكسيكية. وبعد ذلك عمل فى الحكومة وفى عدة مجلات وفى أحد البنوك وأحد بيوت الاستثمار. كما عمل فى وكالة للسياحة وناد للكتّاب.

نشر له أول ديوان شعر عقب تركه لجامعة برنستون، ومنذ ذلك الوقت كتب روايتين وثلاثًا من القصص الغامضة. كما ألف كتابًا عن حياة لنكولن، وديوانين آخرين من الشعر.

وفى سنة ١٩٤٦ نشر كتابًا يضم طائفة مختارة من أشعاره. وهذا الكتاب «كل شىء عن بعثات علمية شهيرة» هو أول كتاب يكتبه للشباب.

المترجم: الدكتور سيد رمضان هدارة

حصل على درجة البكالوريوس فى الطبيعة الخاصة من كلية العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٤٢، وعلى درجة الماجستير فى الطبيعة من جامعة القاهرة عام ١٩٤٦، وعلى درجة دكتوراه الفلسفة فى الطبيعة من جامعة مانشستر عام ١٩٥٠ عمل بهيئة التدريس بكلية العلوم بجامعة القاهرة التى التحق بها منذ تخرجه. له بحوث علمية عديدة نشرت له فى المجلات العلمية، كما ترجم عددًا من الكتب العلمية، من بينها «العلم للمواطن» و «الطبيعة النووية»،

كما ترجم لهذه الجمعية كتاب «آفاق العلم» واشترك فى ترجمة كتاب «المبادئ الأساسية للفيزياء الذرية» وكتاب «كنوز العلم فى أسئلة وأجوبة» وهى من الكتب التى نشرتها هذه الجمعية.

مصمم الغلاف: إيهاب شاكر

محتويات الكتاب

صفحة

المقدمة ٩

رحلة إلى أعماق البحر ١١

كرة بيب و بارتون الغواصة

على الأرض فى طبقات الجو العليا ٣٠

قهر جبل ما كينلى

سر فرعون المفقود ٥٨

اكتشاف قبر توت عنخ آمون

التنين الذى لم يمت ٨١

بعثة بيردن لجزيرة كومودو

القطب الشمالى : عدو وصديق ١٠٣

البعثة الكندية للقطب الشمالى ١٩١٣ — ١٩١٨

مقدمة

يتميز الإنسان من بين المخلوقات الحية بقدرته على وضع الخطط وابتكار الوسائل للحصول على ما يحتاج إليه . فهو يتعلم كيف يصنع السفن والقطارات والسيارات والطائرات ، لأنه يحب التنقل بين الأماكن المختلفة ، ويتعلم فى أسفاره المزيد عن العالم وما يحويه .

لكن السفن والسيارات والطائرات بذاتها لا تساعد الإنسان على حلّ جميع مشاكل العالم أو كشف الستار عن غوامض أسراره . فيريد الإنسان على أى حال أن يعرف أكثر من « ماذا » ، إنه يريد أن يعرف « لماذا » « وكيف » . وهو لا يقنع بمعرفة نفسه كما هى الآن ، إنه يريد أيضًا أن يعرف الكيفية التى آل بها إلى ما هو عليه . فيبحث ، إذن ، عن باب يقوده إلى الماضى ليبين له ما كان عليه ، ومن المحتمل أن يجد هذا الباب فى قبر ملك من ملوك مصر القديمة .

ويمتد حب الاستطلاع عند الإنسان إلى المخلوقات الحية التى تشاركه فى الأرض ، وقد يجد الباب إلى هذه المعرفة فى غابات أفريقيا الممطرة ، أو فى أجمات غينيا الجديدة ، وهو ينظر إلى جبل يبلغ علوًّا شاهقاً بحيث يبدو له أنه بعيد عن مناله . لكن الإنسان المحب للاستطلاع يريد أن يعرف ماذا تكون عليه الحال فوق هذا الارتفاع . وبذلك يبدأ مغامرة أخرى .

وسوف نحاول أن نروى فى هذا الكتاب قصص بعض رحلات الإنسان فى الطرق المؤدية إلى المعرفة ، تلك الرحلات التى أخذته إلى الصحارى والأدغال وإلى قمم الجبال وأعماق البحر .

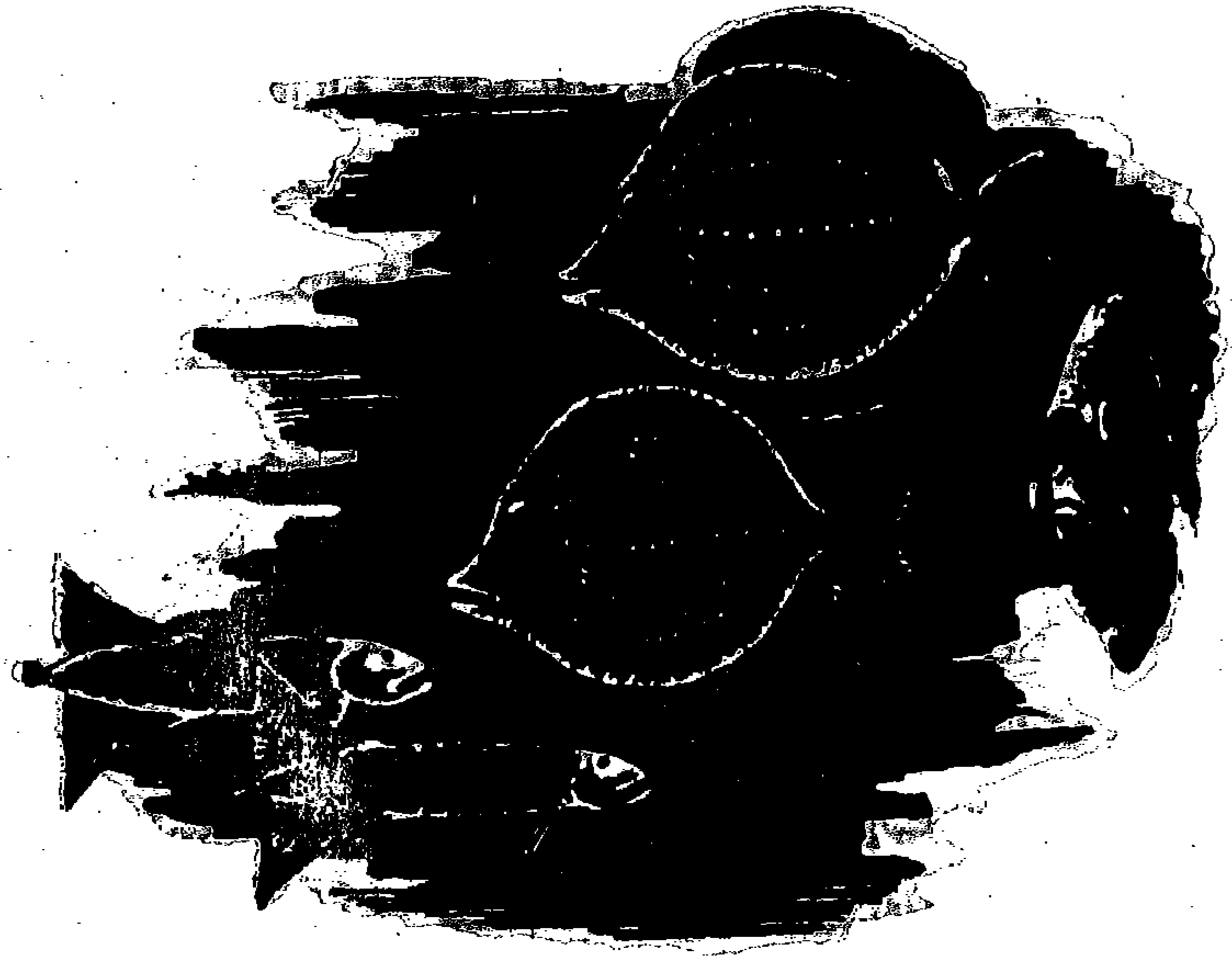

رحلة إلى أعماق البحر

كرة بيب وبارتون الغواصة :

عندما وقف الإنسان على الشاطئ فى العصور القديمة وجال ببصره نحو البحر بدا له أن ما رآه لم يكن شيئاً سوى الماء . مساحة شاسعة منبسطة من الماء الأزرق المشوب باللون الرمادى ! أما الآن فإننا نعلم أن البحر الخضم لا يوصف ببساطة بهذا الشكل ، فهو عالم قائم بذاته ، عالم مملوء بالحياة ، والعجائب والأسرار .

ولقد أحاط بنا دائمًا ، نحن بنى البشر . البحر من كل جانب ، وتخيله الأقدمون نهراً عظيمًا ملتفًا حول اليابس كما تلتف الأفعى . ومن المحقق أنه على الرغم من أن البحر لا يجرى فى مجرى مثل النهر ، فإنه يحيط باليابس ويغطى الجزء الأعظم من الكرة الأرضية .

ولا بد أن الأقدمين تساءلوا منذ الأيام الأولى للبشرية ، عما إذا كانت هناك نهاية للمساحات المائية الشاسعة ، لكنهم لم يقفوا عند حد التساؤل ، بل إنهم

بلغوا ما كانوا يصبون إليه ، فتعلموا طريقة صناعة السفن وكيفية الإبحار بها ، وتعلموا استخدام البوصلة ودراسة النجوم لكى يعرفوا اتجاه سيرهم .

واكتشفوا فى غير سرعة ، ما كان فى الجانب الآخر من المياه ، وعرفوا كل ما يمكن معرفته تقريباً عن سطحها . إلا أن البحر ظل سرًّا غامضًا ، إذ أنه لم يكن شاسعًا فى مساحته فحسب ؛ بل كان عميقًا بعيد الغور . فأعمق بقعة فى قاع البحر تبعد عن مسطحه بما يفوق ارتفاع أعلى جبل فوق الأرض . فيبلغ عمق إحدى بقاع المحيط قرب اليابان حوالى ١٠٥٠٠ متر ؛ أى عشرة كيلومترات ونصف كيلومتر . ويربو متوسط غور البحر على ٣٫٢ كيلومترات :

وإذا علمنا أنه حتى عام ١٩٣٠ لم يتمكن أى إنسان حىّ من الغوص إلى عمق أبعد من ١٥٠ متراً من سطح الماء ، يمكننا أن ندرك السبب فى أن البحر لم يستكشف استكشافًا تامًّا . ولندرس الآن بعض أسباب ذلك :

أولاً : لأننا لا نستطيع التنفس تحت الماء كما يعرف كل من حاول السباحة ، وإذا حاولنا ذلك فإننا نغرق . كما أننا لا نستطيع التوقف عن التنفس حتى نبلغ عمقًا بعيداً .

ثم إن الماء ، بالإضافة إلى ذلك ، ثقيل جدًّا ، فهو أثقل من الهواء بكثير كما يعلم أى شخص حاول أن يرفع دلواً مملوءة بالماء . وكلما غصنا إلى أعماق أبعد ازدادت كمية الماء التى تتراكم علينا . كما أن البحر بالغ البرودة ، وحالك الظلمة فى الأغوار البعيدة .

إننا نستطيع أحيانًا أن نرى الشمس ساطعة على قاع بركة ضحلة ، وقد يؤدى بنا ذلك إلى الظن بأن الضوء ينفذ من الماء كما ينفذ خلال النافذة الزجاجية . ولكن هذا غير صحيح . فأشعة الشمس لا يمكنها النفاذ إلى الأعماق البعيدة فى البحر ، ولا يوجد ضوء مطلقًا فى الأماكن العميقة .

على أن الناس كانوا ، منذ أزمان بعيدة ترجع إلى الإسكندر الأكبر ، أى إلى ما قبل المسيح بثلثمائة عام ، يفكرون فى كيفية بلوغهم قاع المحيط ليروا

ما يجرى هناك . ويعود السبب فى تشوقهم هذا إلى القصص التى كانت تروى دائمًا عن المخلوقات البحرية الغريبة التى كانت توجد على الشاطئ ، أو مكبلة فى شباك الصيادين ، وربما ظن الناس أن ظلمة البحر البارد العميق لا تزال تخفى ما هو أغرب وأعجب .

ولم يكن حب الاستطلاع هو السبب الوحيد لتشوقهم لاستكشاف قاع المحيط ، فكان بعض الناس يرغبون فى النزول إلى قاع المحيط لمجرد الشعور بالإثارة بأنهم ذهبوا إلى حيث لم يذهب أحد قبلهم ، ورأوا ما لم ير أحد قبلهم قط . وكان بعضهم يرغب فى العثور على كنوز ثروات المراكب الغارقة والحصول عليها ، وهناك بعض آخر رغب فى استكشاف بعض الأمور عن سر الحياة التى يحتمل أن تكون قد بدأت فى أعماق البحار .

ولقد بدأ الناس منذ زمن قديم محاولة الوصول إلى طرق الغوص إلى أعماق البحار . وكانت أمنيتهم الوحيدة هى القدرة على التنفس تحت الماء مثل الأسماك والمخلوقات البحرية الأخرى ! وحيث إن هذه الأمنية كانت مستحيلة فقد تحتم أن تعتمد محاولات الإنسان فى بحث أعماق البحر على الهواء الذى يسحب إلى داخل الماء .

فنحن نعلم أننا إذا احتفنا الهواء بأيدينا فى أثناء وجودنا فى الماء ، ثم قلبناها وضغطنا بها إلى أسفل فى الماء ، فإننا بذلك نحمل الهواء تحت السطح . ولقد كان الغواصون الأولون يعرفون هذه الحقيقة فاستخدموا لهذا الغرض أشياء مختلفة مثل الدلو أو البرميل . فعندما تقلب هذه الأشياء تحت الماء تمسك بالهواء داخلها . وإذا ما زج الغواصون برءوسهم فى هذا الهواء فإنهم يصبحون قادرين على التنفس . وهذه الطريقة ، التى نجحت فى المياه غير العميقة ، هى أساس عمل خوذات الغوص المستخدمة فى وقتنا الحاضر .

ومهما يكن من شىء فالبقاء تحت الماء أمر يكتنفه الكثير من المشاق والمتاعب ، فكلما ازدادت كمية الهواء الخفيف الوزن الذى يحمله الغواص

يزداد الثقل الذى يجب أن يزود به لكى يبقى تحت الماء . ولقد حل اختراع لباس الغوص الذى يمكن دفع الهواء فيه من أعلى الماء هذه المشكلة بالنسبة للأعماق التى تصل إلى ١٥٠ متراً .

إننا لم نتعرض بالكلام حتى الآن للغواصات ، وربما يبدو أنه نظراً لأن الغواصات يمكنها أن تحمل الناس وتجوب بهم تحت أمواج البحر بتأثير قدرتها الذاتية ، فقد يكون فى ذلك حل المشكلة . وعلى أى حال فإن قصة چول ڤيرن تحكى لنا أن الكابتن نيمو قطع ٢٠,٠٠٠ عقدة تحت البحر فى الغواصة نوتيلس ! ورب قائل ، من قراء هذه القصة ، يقول : « إن كل ما يتطلبه استكشاف أعماق المحيط هو تحسين السفن الغواصة والوصول بها إلى الكمال. وعلى أية حال فعلى الرغم من أن الغواصات أحرزت تقدماً عظيماً فإنه لم تتمكن أى غواصة حتى الآن من العمل بأمان فى أعماق تزيد على ١٥٠ متراً تحت سطح الماء.

وفى العقد الثالث من هذا القرن انخرط الدكتور وليم بيب مدير قسم بحوث المناطق الحارة فى جمعية علم الحيوان بنيويورك فى صفوف أولئك الذين كانوا يحلمون بزيارة أعماق البحار ، ولقد أمضى الدكتور بيب وقتاً كبيراً يجوب المحيط ، منتشلا أحياءه بالشباك ، ومكتشفاً أسماكاً وصوراً أخرى من الحياة لم تعرف قط من قبل ، كما أنه تعلم فى تلك الرحلات حقائق جديدة عن الأنواع المألوفة . وعلى الرغم من المجموعات القيمة الوفيرة التى حصل عليها فإنه كان يعلم أنه ينقصه أكثر مما حصل عليه ، فظل يحلم برحلة شخصية إلى أعماق البحار عسى أن يرى بعينيه الحياة فيها .

وللوصول إلى هدفه صمم عدة أسطوانات غوص معدنية ، لكنه سرعان ما تحقق أنها لا يمكنها أن تتحمل ضغط الأعماق البعيدة المخيف ، إذ يزداد الثقل الواقع على البوصة المربعة من السطح الخارجى للأسطوانة بمقدار ١٥ رطلا كلما ازداد عمقها ٣٣ قدماً . وبالنزول مسافة نصف ميل تحت الماء تتعرض كل بوصة مربعة إلى ضغط يزيد على الطن ، ولقد كان بادياً أن المشكلة من

المشكلات التى لا حل لها .

إلا أنها حلّت ، وقد جاء حلّها على يدى رجل يدعى بارتون ، وهو الذى أصبح مصاحباً للدكتور بيب فيما بعد . كان أوتيس بارتون من المشغوفين بالتصوير تحت الماء ، وكان هو الآخر يتوق إلى وسيلة للوصول إلى أغوار أعمق مما يمكن لخوذة الغوص أن تحمله إليها ، وبحلول عام ١٩٣٠ أمكنه توفير المال الكافى ، كما أمكنه الوصول إلى أفكار كافية لإثارة اهتمام إحدى شركات الهندسة البحرية . فعمل مع الكابتن چون بتلر ووصلا إلى حل اعتقدا أنه هو السبيل العملى لاستكشاف المحيط ، ولقد كان الأساس فى فكرة بارتون هو أن الأجسام الكرية تتحمل ضغوطاً تفوق الضغوط التى تتحملها الأجسام ذات الأشكال الأخرى . وعقد بيب وبارتون عزمهما على العمل معاً فى محاولة عمل ما لم يستطع عمله أى إنسان من قبل .

من كان يصدق أن كرة جوفاء من الصلب يقل قطرها عن ١٥٠ سنتيمتراً ويبلغ سمك جدارها ٣,١٧ سنتيمترات تقريباً يمكنها أن تحمل بأمان رجلين إلى أغوار المحيط المجهولة ؟ لقد ساور الشك كثيراً من الناس — بما فيهم بيب وبارتون نفساهما — أن شيئاً من هذا يمكن حدوثه ، لكن هذين المكتشفين عقدا العزم على التحقق من ذلك . وكان أول ما أراده الدكتور بيب هو إيجاد اسم لهذا الجهاز الغريب ذى الأعين الكبيرة الثلاث المنبثقة منه فجعلته شبيهاً بسرطان البحر ، فقرر أن يكون الاسم الإنجليزى مكوناً من كلمتين وصلهما بعضهما ببعض ، وهما الكلمة الإنجليزية « للكرة » مضافاً إليها اللفظ الإغريقى « للعمق » فأصبح اسم الجهاز « كرة الأعماق » .

اصطحب بيب معه فريقاً من العلماء والميكانيكيين إلى جزيرة ننصتش ببرمودا حيث كان يوجد معمل بحوث تابع لجمعية علم الحيوان بنيويورك ، وهو المكان الذى تدرس فيه موضوعات الأحياء البحرية .

ولقد استلزمت هذه المخاطرة كمية هائلة من المعدات ، فأخذ الدكتور بيب

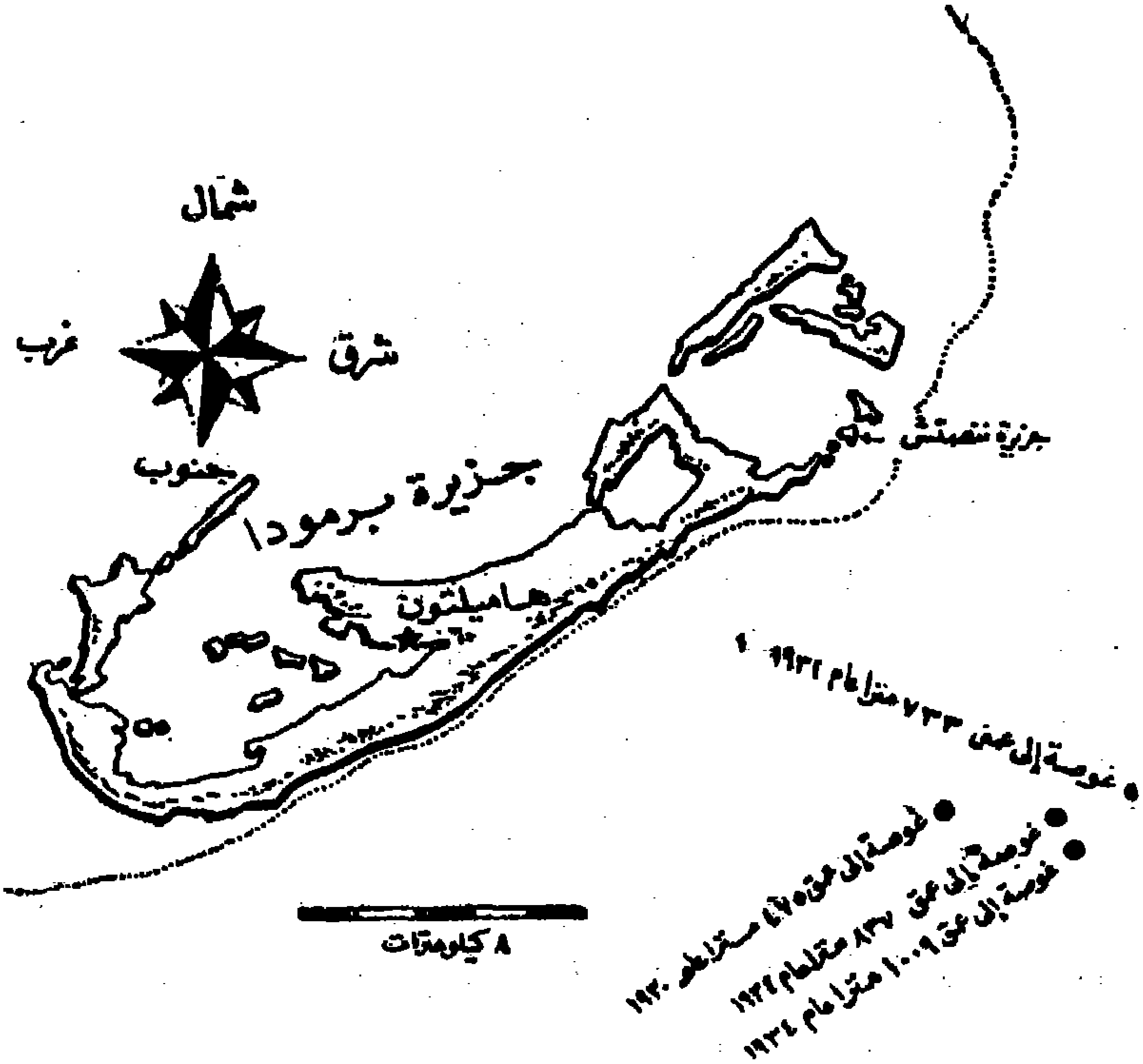

معه قارباً بحريًّا وصندلا مكشوف السطح مزوداً برافعة وآلة بخارية وبكرة ضخمة للف الأحبال الصلب التى تدلى بوساطتها كرة الأعماق إلى باطن البحر .

ولقد أسهم بارتون بنصيب فى هذه المعدات فأحضر الكرة ذاتها وأكثر من ٨٠٠ متر من الحبل المصنوع من الصلب بقطر قدره $\frac{٧}{٨}$ بوصة ، كما أنه أسهم بحبل من المطاط الأصم مدفون فى باطنه مجموعتان من الأسلاك الكهربية . خصصت إحداهما للإضاءة الكهربية والأخرى للتليفون . ولقد كان ذلك ضروريًّا لكى يتمكن الرجال الموجودون فى كرة الأعماق من التحدث إلى معاونيهم الموجودين على سطح الماء . وكانت الإضاءة الكهربية لازمة أيضًا لإضاءة البحر المظلم خارج الكرة .

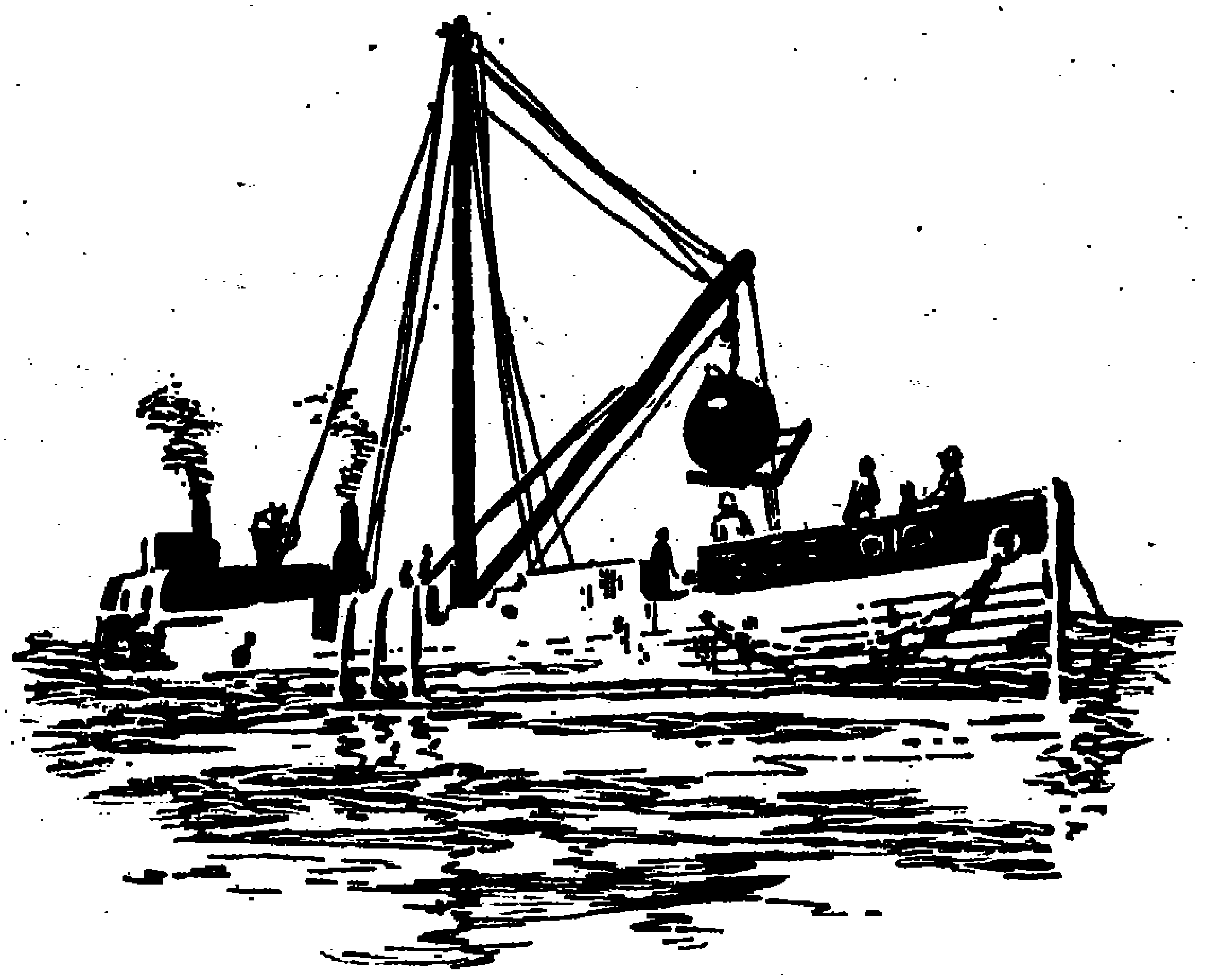

الصندل البحرى على أهبة الإبحار من جزيرة ننصتش ببرمودا

والآن فلنلق بنظرة على سطح الصندل « ريدى » فى أثناء تهاديه فوق سطح المياه الهادئة على بعد ١٣ كيلومتراً من جزيرة ننصتش ببرمودا فى صباح أحد أيام شهر يونية عام ١٩٣٠ . فنجد السطح الخشبي القديم يتهادى فى مهب الرياح تسحبه قاطرة بحرية بخارية ، فى حين أن أعضاء البعثة وعددهم تسعة عشر ، بالإضافة إلى الدكتور بيب والمستر بارتون يهرعون فى إعداد معداتهم .

ويسود عقول الجميع الشعور بالانفعال والإثارة ، كل فرد منهم عليه واجب يؤديه ، فعلى أحدهم ملاحظة الحبل الصلب ، فى حين نجد كثيرين آخرين مهتمين بأمر الحبل المطاط المحتوى على الأسلاك الكهربية ؛ وكان على اثنين آخرين تشغيل الرافعة وملاحظة مراجل الآلة البخارية المخصصة لإدارتها، ولايزال هناك الآخرون الذين تنتظرهم أعمال كثيرة عند بدء النزول الحقيقى ، متأهبين لمد يد العون والمساعدة .

ويدخل بارتون والدكتور بيب كرة الأعماق ليتحققا من أن كل شيء على ما يرام. ولم يكن عملهما مريحاً ، فاتساع الفتحة التى يدلفان منها إلى داخل الكرة يبلغ ٣٧ سنتيمتراً فقط ، كما أنها محاطة بمسامير كبيرة بارزة ، وعلى من يريد الدخول فى الكرة أن يزحف دافعاً برأسه أولا بين تلك المسامير ثم خلال الفتحة .

وكان عمق البحر تحت الصندل أكثر من ١٦٠٠ متر من الماء ، ولم يساور المستكشفين أو باقى الفريق الشك فى أن كرة الغوص يمكن أن تدلى إلى العمق الذى يسمح به الحبل الصلب . ولكن لم يمكن لأى واحد منهم أن يجزم بأن الغواصين سوف يكونان على قيد الحياة عند رفع الكرة إلى السطح ثانية . فربما لا تتمكن كرة الأعماق من تحمل ضغط الأعماق الهائلة . بل ربما تتسرب مياه البحر المظلمة الباردة من أحرف نوافذها وبابها ، وربما تنفذ عند الوصلة التى تدخل منها الأسلاك الكهربية إلى داخل القشرة الصلب . فمن المحتمل أن تنهار الوصلة المحكمة ، التى لا تتسرب منها المياه عند سطح البحر ، تحت الضغط المفزع البالغ ستة ملايين ونصف مليون من الأرطال على عمق ربع ميل ، لكن هذين المستكشفين كانا عالمين وليسا شيطانين جريئين ، فلا بد أنهما كانا يعرفان الإجابة عن كل سؤال قبل المخاطرة بروحيهما .

وعلى ذلك أحكم إقفال الوحش الكبير ذى الأعين السرطانية يوم ٣ من يونية عام ١٩٣٠ دون أن يكون أحد بداخله وقذف به فى الماء . وأخذ يغوص فى الماء رويداً رويداً ، وكان مرئياً على عمق ٢٢,٥٠ متراً أو ٣٠ متراً فى المياه الصافية ، ثم اختفى فى الظلام . وبمضى خمس وأربعين دقيقة كان قد تدلى من الحبل الصلب ما طوله ٦٠٠ متر . وبذلك تكون كرة الأعماق معلقة فى منتصف المسافة إلى القاع تقريباً ! وإذا كان من المقدر أن يحدث أى شيء لكرة الغوص الضخمة ، فإنه يكون قد حدث فعلا أثناء ذلك الوقت ، وعلى ذلك أعطى الدكتور بيب الإشارة لرفعها .

ويلاحظ الدكتور بيب فى أثناء لف الحبل الصلب أن أمراً قد حدث ،

فقد وجد أن الحبل المطاط المحتوى على الأسلاك الكهربية ، والذى كان مثبتاً فى الحبل الصلب الذى تتدلى منه الكرة ؛ التف حول الحبل الصلب ، ونتيجة لذلك لا يمكن لف حبل الرفع حول البكرة دون تهشيم الحبل المطاط بما فيه من أسلاك التليفون والإضاءة ، اللذين بدونهما لا يمكن مواصلة محاولة الغوص . ولا يوجد مخرج لذلك إلا بجعل الحبل المطاط ينساب من ملف كبير « طوله ٨٠٠ متر » حول الكرة ذاتها .

وخفق قلب بيب ، وبدأ يتساءل عما إذا كان للإنسان أن يجازف للوصول إلى تلك الأعماق البعيدة فى باطن البحر . ولحسن الحظ تم إصلاح الحبل المطاط وفصله عن الحبل الصلب فى أربع وعشرين ساعة من العمل المضنى ، ووضع على شكل لفات كبيرة فوق سطح الصندل . ولقد تبين من الاختبارات التى أجريت أن الدائرة الكهربية لم يصبها ضرر ما .

وبعد ثلاثة أيام سطعت شمس برمودا على تجربة غوص جديدة ، كانت فى هذه المرة إلى عمق ٤٥٠ متراً . وسارت الأمور سيراً مرضياً ، ولم تتعقد الأحبال فكان سلوكها حسناً للغاية ، ولم يتسرب من الماء إلا قليل لا يتجاوز ملء فنجان القهوة .

ولم يعد هناك أى سبب للتأخير ، فإذا كانت الكرة الفارغة يمكنها الوصول إلى ذلك العمق ، فكذلك يمكن أن يتم نفس الأمر للرجلين اللذين صنعا كرة الغوص فدلف بيب وبارتون داخل الكرة وهما يرتجفان من برودة أرضيتها المصنوعة من الصلب . وجلسا القرفصاء بالدرجة التى مكنتهما منها الغرفة الكرية ، وكان الأمر شبيهاً بوضع رجلين فى حوض الحمام « البانيو » ثم تغطيته بحوض آخر مقلوب .

ولقد أخذا معهما مستودعين للأكسيجين وأطباقاً تحتوى على مواد كيموية لامتصاص الرطوبة وغاز ثانى أكسيد الكربون الخارجين مع هواء زفيرهما . وكان الأكسيجين الذى ينبعث ببطء من المستودع يحل محل ما يستهلكه الغواصان

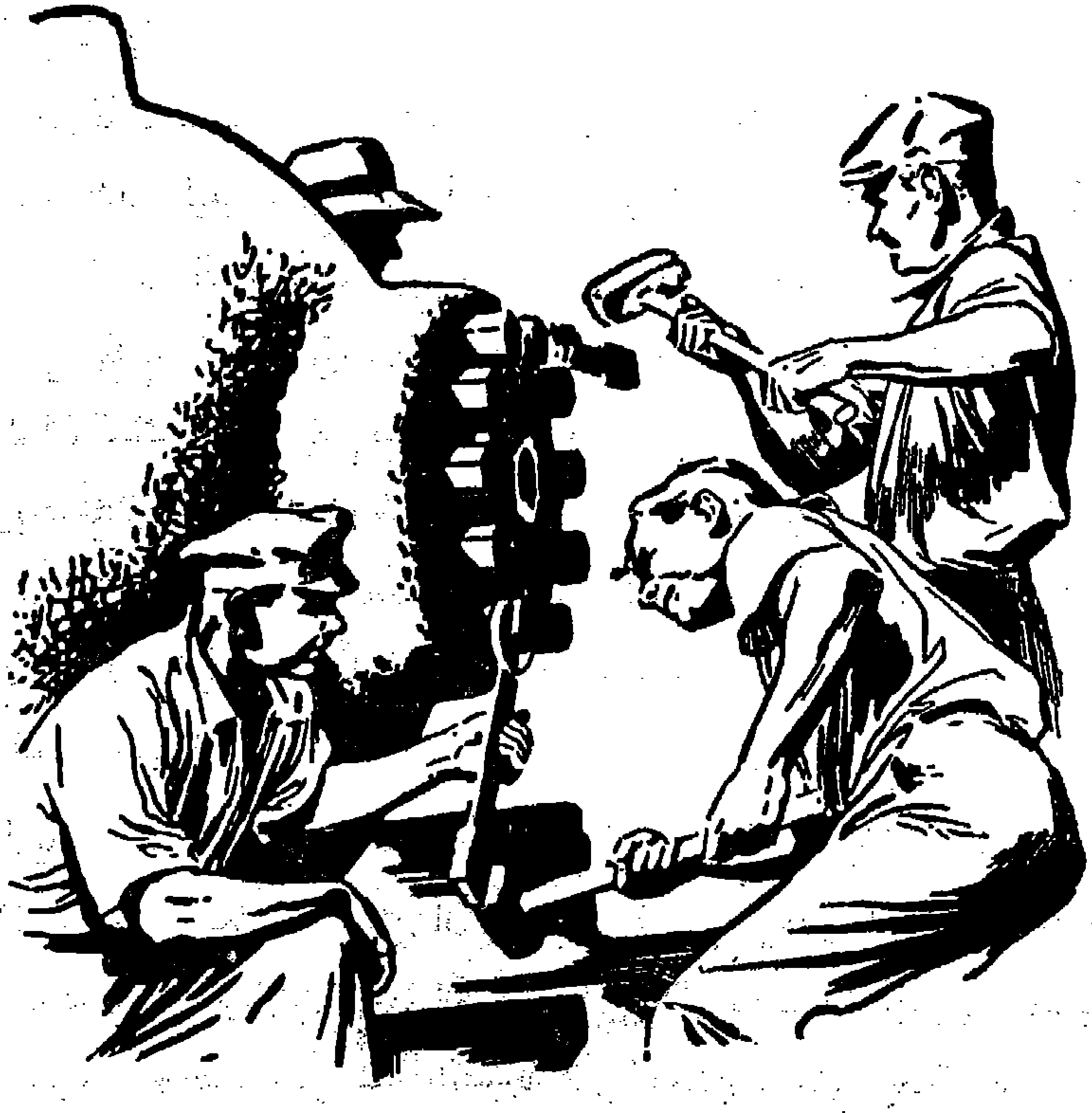

وبدأ البحارة فى إحكام المسامير الغليظة

من هواء الكرة . ولقد كان ذلك الإجراء ضرورياً حيث لم تكن هناك أنبوبة للهواء تصل الكرة بسطح الماء كما هى الحال فى خوذة الغوص العادية .

وسرعان ما استقر المستكشفان حيث قبع بيب قرب إحدى فتحات الكرة السرطانية وقبع بارتون حيث كان يمكنه ملاحظة الآلات والأجهزة . وبدأ الفريق فى الخارج فى إحكام المسامير الغليظة فى الباب المصنوع من الصلب الذى كان يزن ١٨٠ كيلوجراماً . وكان عليهم أن يطرقوا مفاتيح الربط « بالشاكوش » لكى يحكموا رباط المسامير إحكاماً تاماً . ويمكننا أن نتصور الصوت الذى أحدثه ذلك داخل الكرة الصلب المحكمة الإغلاق ! ويقول الدكتور بيب : إن ضجيجه كان من أمقت الأصوات التى طرقت سمعه . ولكنه ما إن انتهى من الاحتجاج على ذلك تليفونياً حتى كان كل شيء قد انتهى .

ودارت عجلة الآلة الرافعة ببطء فارتفعت الكرة الصلب ، ذات الطنين ونصف الطن براكبيها المتقرفصين فى الهواء ، ثم طوحت فوق البحر ، وبإشارة من القبطان عكس دوران الرافعة وأنزلت الكرة نحو الماء . فارتطمت بالسطح وغاصت فى باطن الماء محدثة فوراناً من الفقاعات والرذاذ كسا سطح البحر باللون الأخضر .

كان بيب ينظر من وراء النافذة ذات الزجاج « الكوارتز » الذى بلغ سمكه ٧,٦٢ سنتيمترات ، فرأى قاع الصندل يختفى من فوقه ببطء حتى غاب عن بصره كلية فى النهاية ، كما اختفى معه العالم الخارجى ولم يعد هناك إلا الفضاء ، كما لو كان الغواصان ممتطيين مركبة فضاء صاعدة إلى أعلى بدلا من أسفل ، إلا أن هذا الفضاء كان مملوءاً بالماء . وواصلت الكرة هبوطها ١٥ متراً ! ثم ٣٠ متراً ! ثم ٦٠ متراً .

وعندما وصلت الكرة إلى عمق ٩٠ متراً صدرت صرخة عن بارتون ، فقد لاحظ تسرباً بسيطاً للمياه من تحت الباب المحكم ، ففحصه بيب بقلق ، ووجد أن التسرب لم يتزايد إلا أنه كان يعرف أن الضغط المسبب له كان يزداد كلما

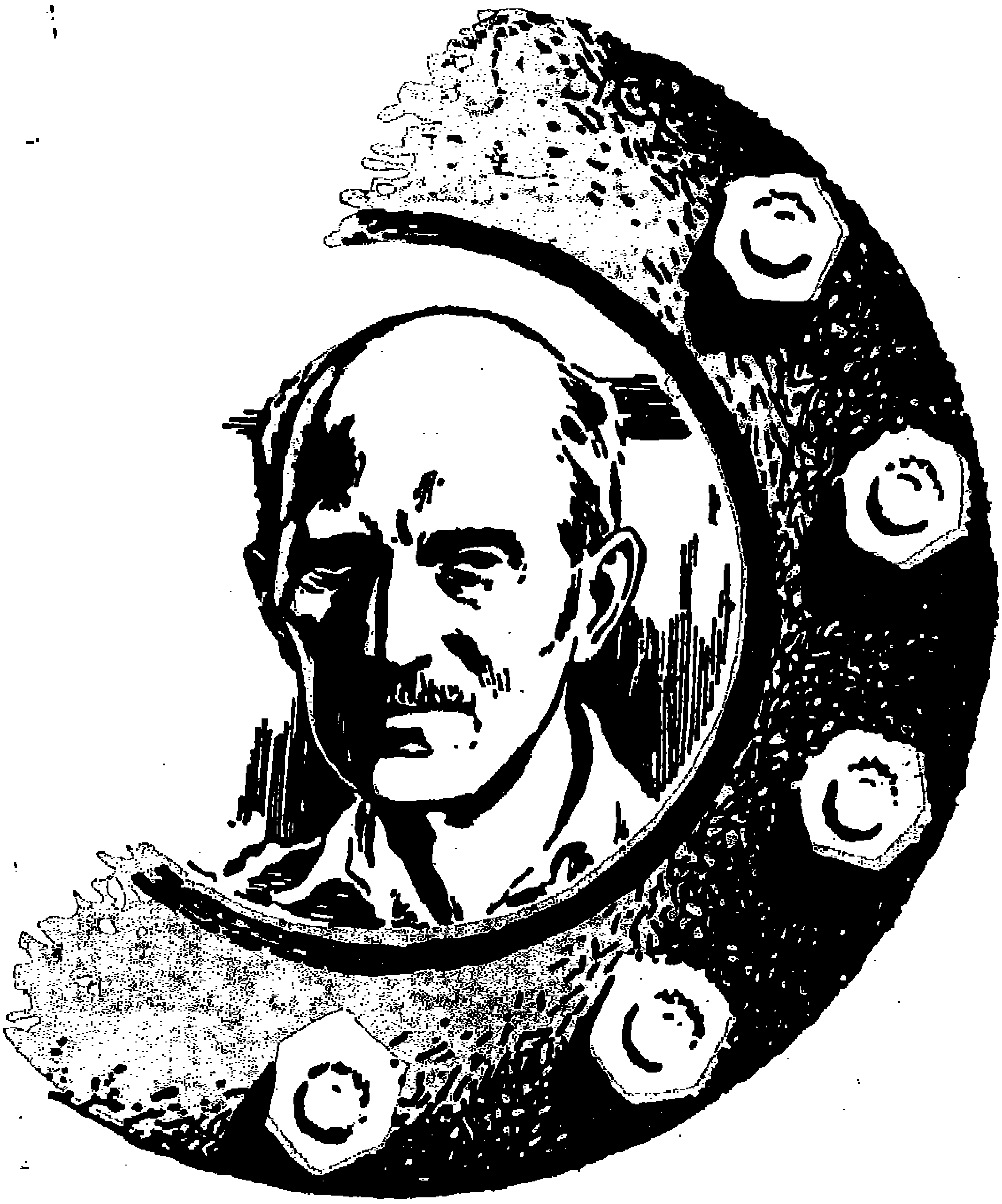

الدكتور بيب من وراء نافذة كرة الغوص

ازداد العمق الذى يهبطان إليه ، ولم يكن أمامهما ما يمكن عمله إلا أن يواصلا الهبوط ويريا ما يحدث ، فاستمرا فى الهبوط ، وانقلبت الخضرة خارج النافذة الكوارتيزية إلى الزرقة .

وسرعان ما تخطيا أبعد عمق وصل إليه غواص من قبل ، ومن هنا بدأ الاستكشاف الحقيقى . وكان ما هما مقدمان على رؤيته ابتداء من تلك اللحظة ، عالما جديداً لم يره أحد غيرهما من قبل . فتحولت زرقة المياه فى الخارج تدريجياً إلى السواد .

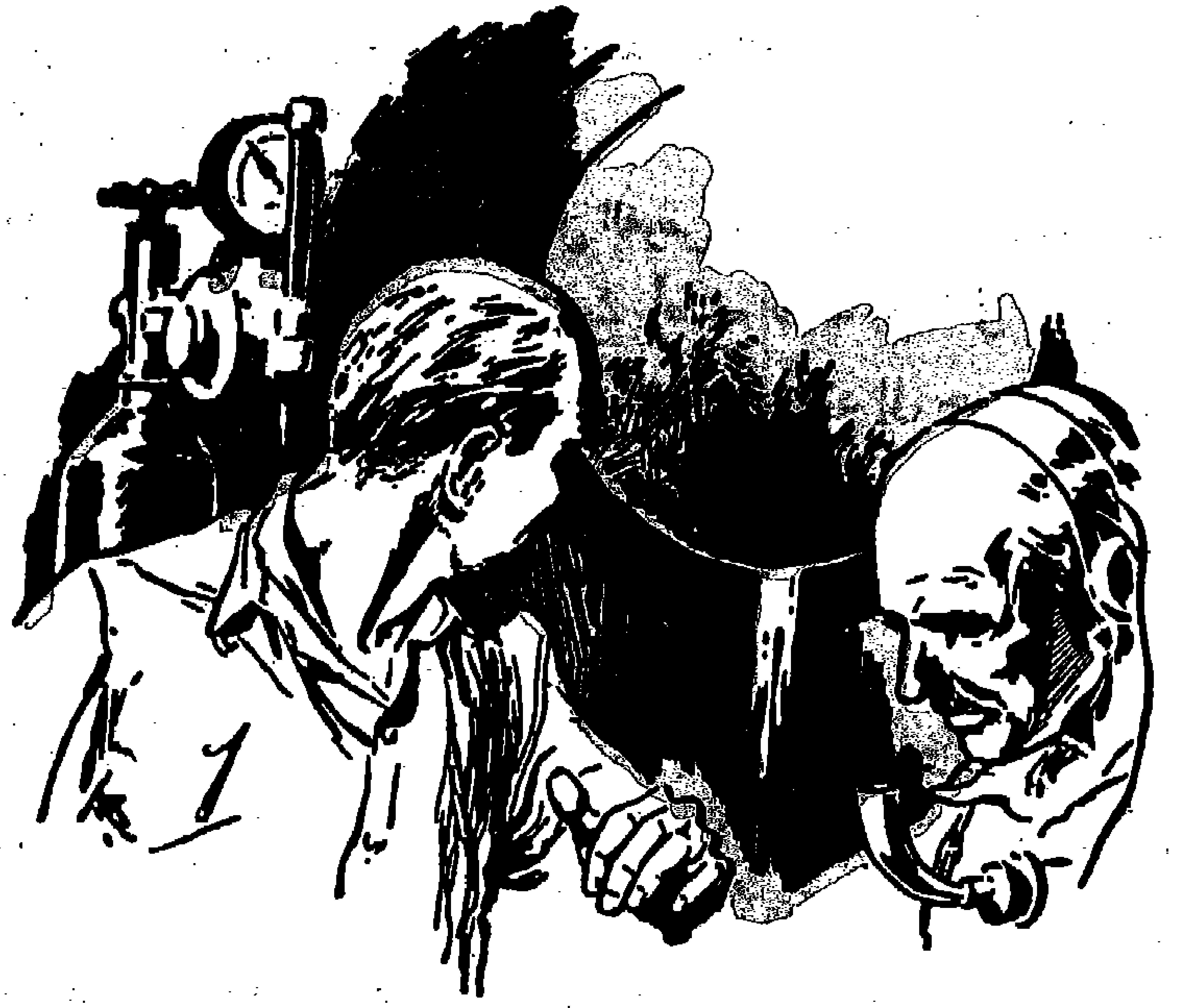

قطرة ماء تتسرب من تحت الباب

وكان بيب أو بارتون يضيء المصباح الكهربى بين لحظة وأخرى ليرى تسرب الماء من تحت الباب ، تُرى ألم يكن الأمر يزداد سوءاً حقيقة ؟ أم أنهما أرادا أن يعتقدا ذلك ؟ وعلى عمق ٢٤٠ متراً أصدر بيب أمره بالتوقف عن الهبوط . وجلس فى الظلام برهة يفكر ، لقد كانا مستريحين ، وكان الهواء يسير سيراً حسناً ، ولم يبد أن تسرب الماء آخذ فى الزيادة . ولكن فجأة وبدون أى سبب ، خالجه شعور قوىّ ، بعدم الاستمرار ، فأعطى الإشارة للرفع .

ولقد عرفا فيما بعد ما كان يمكن أن يحدث لو أنهما قررا الهبوط إلى عمق أبعد ، وذلك عندما أجريا تجربة غوص بكرة فارغة حيث أحكمت الكرة فى هذه المرة وأسقطت إلى عمق ٩٠٠ متر ، ثم رفعت بعد ساعة وأربعين دقيقة .

فما إن ظهرت الكرة معلقة فوق السطح استعداداً لإنزالها عليه لفحصها

حتى لاحظ الدكتور بيب فى الحال أن أمراً قد حدث . لقد كان الماء يندفع بشدة من وجه إحدى النوافذ . وعندما استقرت الكرة على سطح المركب وجد بيب أنها مملوءة تقريباً بالماء .

وإليك ما حدث . كانت الكرة قبل الغوص مملوءة بالهواء ، وعندما اندفعت المياه إلى داخل الكرة ضغطت الهواء بحيث أصبح طبقة رقيقة فى الجزء العلوى للغرفة الكرية . وكان هذا الهواء ثائراً فكان يريد أن يتمدد إلى حجمه الأصلى ، وبذلك كان يتصارع مع الماء الذى حل محله .

ولقد تمكن الدكتور بيب من رؤية المياه الفائرة فى أثناء صراع الهواء فى الخروج من الثقب الضئيل الذى تسرب منه ماء البحر . فبدأ فى فك المسمار الأوسط للباب الصلب ، عندئذ بدأ الهواء الصاخب فى الزئير والصرير وطرد الماء المتطفل إلى الخارج خلال ثقب المسمار ، محدثاً سحابة من الرذاذ المصحوب بالأزيز .

ولقد أمر بيب الجميع بالابتعاد عن الكرة لتحققه مما كان يمكن أن يحدث ، ثم أدار هو بمعاونة مساعد له يد المسمار المتوسط النحاسية ، فازداد اندفاع الماء الزائد المختلط بالهواء ، وفجأة انفلت المسمار من أيديهم مندفعاً بعرض سطح المركب كقذيفة المدفع ، وتبعه عمود من الماء فى صلابة الحديد ، ولو أن بيب كان واقفاً فى طريق المسمار أو عمود الماء عند اندفاعهما من الكرة لتمزق جسده إرباً .

وفرح كل رجل من رجال الفريق لعدم وجوده فى الكرة الصلب عندما كانت على عمق ٩٠٠ متر حيث بدأ الهواء المحبوس والمياه العميقة فى صراعهما . ولقد كان السبب فى المشكلة هو أن لوح الكوارتز الجديد لم يكن قد أحكم وضعه فى إطاره .

وبعد مضى أربعة أيام أنزلت الكرة وهى فارغة إلى عمق ٩٠٠ متر ولم تنشأ مشكلات فى هذه المرة ، فدلف بيب وبارتون داخل الكرة الصلب واتجها

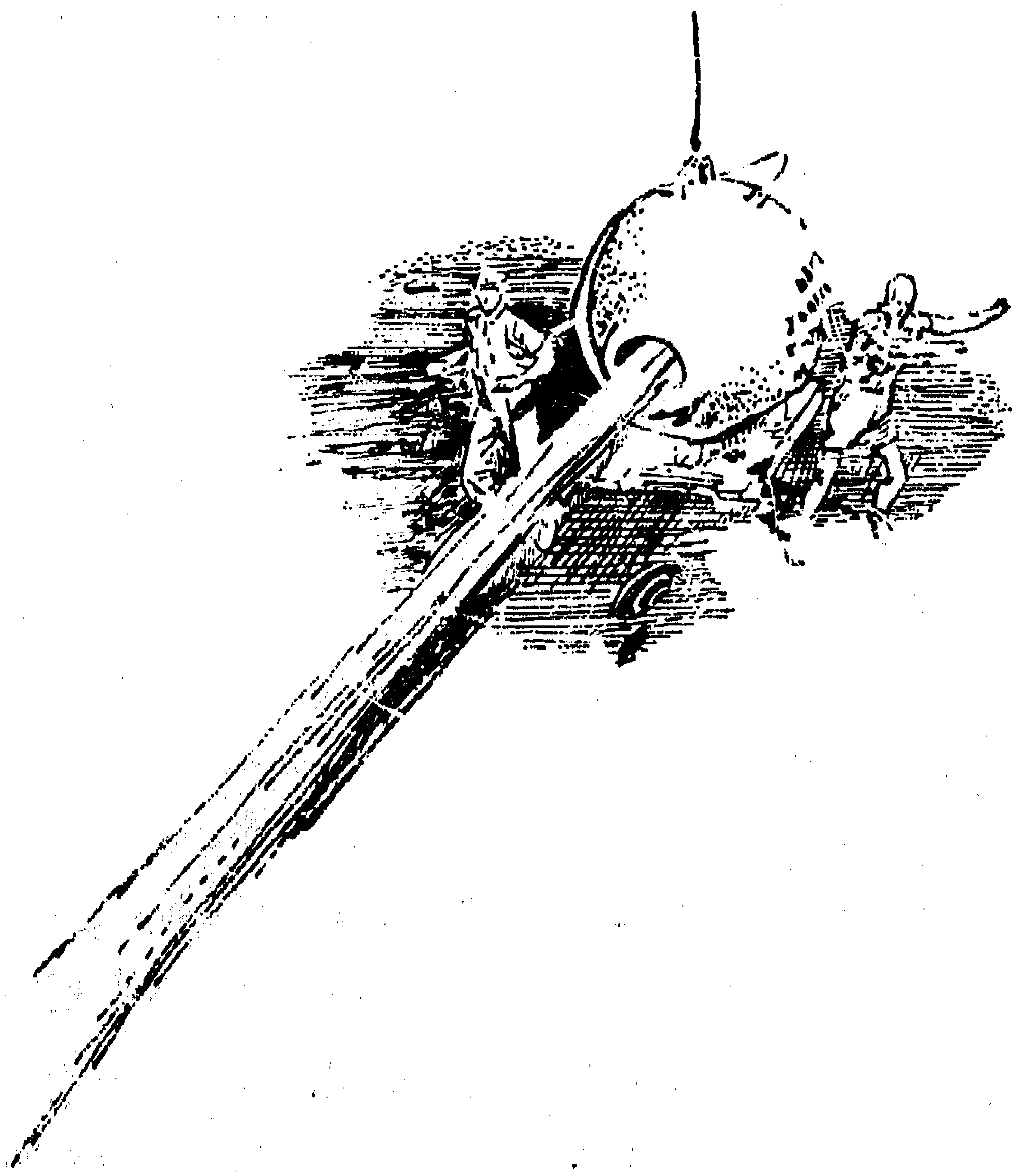

وفجأة انفلت المسمار من أيديهم مندفعاً بعرض سطح المركب كقذيفة المدفع

مرة أخرى نحو العالم المجهول . وتعطل التليفون على عمق ٧٥ متراً ، وأصبح الغواصان بدون الأصوات الآتية إليهما من العالم الخارجي فى وحدة قاتلة لا حول لهما ولا قوة ، ولكن لحسن الحظ أن الضوء الكهربى كان لا يزال يعمل، فلقد تمكنا من إرسال إشارة ضوئية كان قد سبق الاتفاق عليها ، وفهم منها الفريق الموجود على السطح أن بيب و بارتون يرغبان فى أن يرفعا إلى أعلى .

وفى ١١ من يولية كان الطقس حسناً للغاية وأقلع المستكشفان نحو الأعماق دون أن يبعثا بالكرة فارغة أولا ، وأحس بيب أنهما أصبحا يعرفان القدر الكافى لتشغيلها ، وبدأ تفكيره فى فرص هبوطهما ثم عودتهما يقلّ ، فى حين ازداد تفكيره فى النظر خارج النافذة والبحث عن دلائل الحياة . ولم ير حتى تلك اللحظة أى شيء لم يمكنه رؤيته من سطح الماء . وأصبح هو وزميله مستكشفين .

وعلى عمق ٦٠ متراً رأى بيب فى هذه المرة ، سمكة أمكنه أن يعرفها ، وهى القرش المعروف فى مياه برمودا . ولكن كان يجب أن تكون ذات لون أزرق قاتم تزينه أشرطة أفتح لوناً ، لكن هذه السمكة لم تكن كذلك ، إنها كانت بيضاء ناصعة ذات أشرطة سوداء ، وهنا ظهرت دلالة أخرى على الفرق بين العالم الأرضى وعالم الأعماق ، فحتى الألوان كانت مختلفة ، فنحن نرى الألوان حيث يوجد الضوء فقط كما نعلم .

وعلى عمق ١٢٠ متراً رأى أول سمكة من أسماك الأعماق ، سمكة لم يرها حيّة على الإطلاق على السطح ، رآها تعوم أمام النافذة ، وأصبح عالم البحر مملكة كلها سحر وأسرار مملوءة بالشرر البراق . فمن أسماك ذات شعاعات ضوئية ممتدة على جوانبها ! إلى مخلوقات شفافة ذات بطون ممتلئة جمرات متوهجة ! وقواقع ذهبية ليس لها أصداف ترفرف بأجنحتها وتطير ! وأسماك فضية نحيلة وضاءة ! وجراد البحر الذى كان يبعث بسحابات من الضوء كما لو كان مسدساً مائيًّا مملوءاً بسائل نارى .

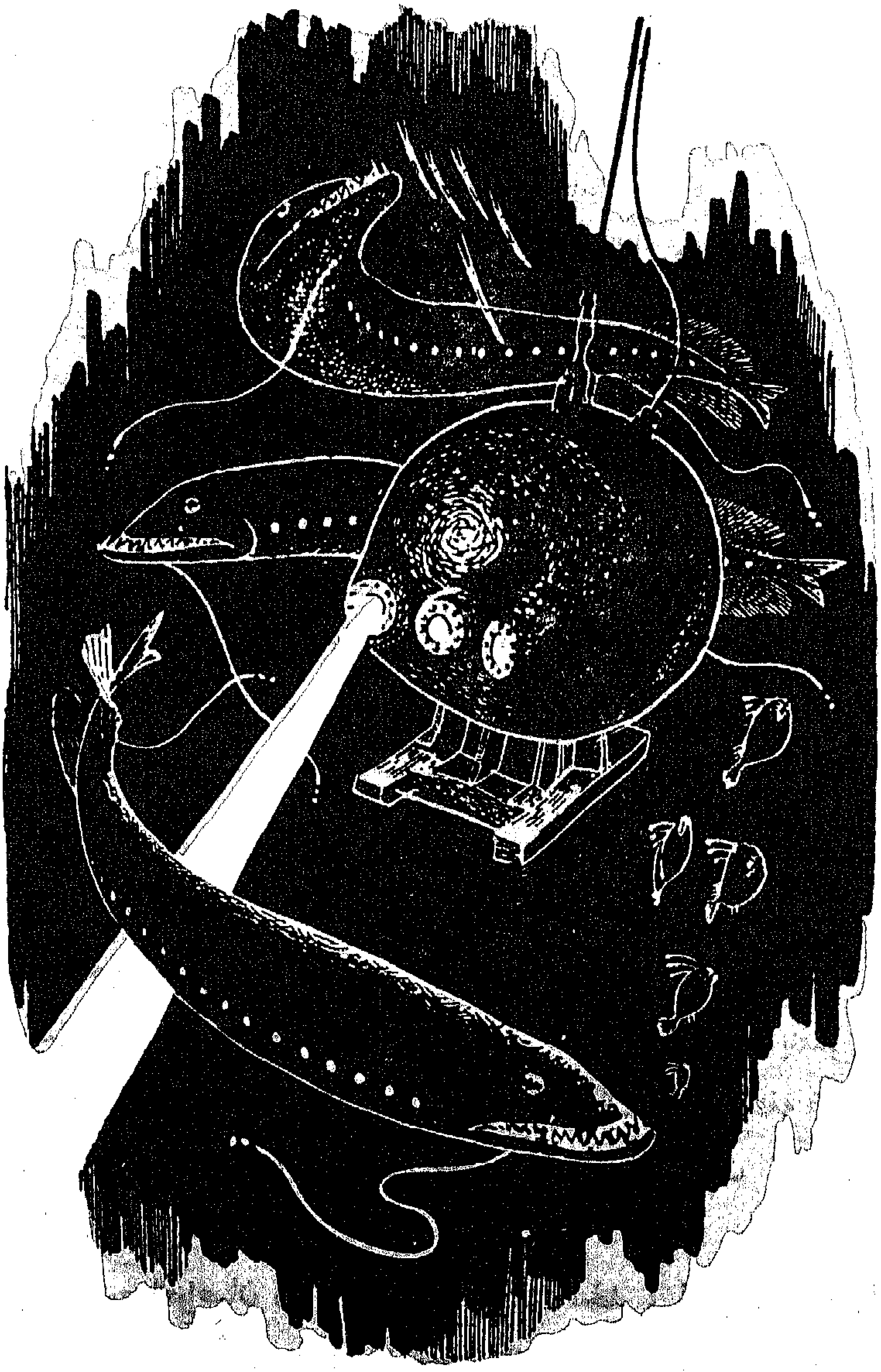

مخلوقات ضخمة معتمة تختفي من الضوء

وواصلت كرة الأعماق هبوطها ببطء وانتظام وعلى عمق يزيد على ٣٠٠ متر كشفت الأنوار الكاشفة القوية التى كانت تنبعث من إحدى النوافذ الكوارتيزية عن سمكة غريبة ذات أضواء تميل إلى الخضرة على جانبيها ، ولم يكن الدكتور بيب أو أى شخص آخر قد رأى مثل هذه المخلوقات من قبل .

وعلى عمق ٣٩٠ متراً ، كان البحر مثل الليل مليئاً بالنجوم السهمية والصواريخ المندفعة ، وكانت تقترب من النافذة أحياناً مخلوقات غير معروفة تعوم نحو النافذة ثم تنفجر إلى وابل من الشرر .

وفى ظلام البحر يحمل كل شىء تقريباً ضوءه ينيره ويطفئه حسب إرادته . وكانت معظم المخلوقات ، وليس كلها تماماً ، تظهر فترة فى أشعة الأضواء الكاشفة المنبعثة من كرة الغوص ، فتمكن الدكتور بيب من رؤية حدود أجسام مخلوقات ضخمة معتمة تختفى من الضوء . ترى ماذا كانت تلك المخلوقات ؟ إننا سوف نعرف شيئاً عنها يوماً ما . فأسرار أعماق البحار كثيرة جداً بحيث لا يمكن الكشف عنها جميعاً فى بضع غوصات قصيرة .

وتوقفت كرة الأعماق عن الغوص على عمق ٤٢٨ متراً ، وهنا يروى لنا الدكتور بيب أنه شاهد سمكة خيالية متناهية فى الصغر لا يتجاوز طولها ١٥ سنتيمتراً تعوم بسهولة فى الضوء المنبعث من كرة الأعماق ، ولقد بدا له أنه من المستحيل عليه أن يصدق أنه لا يمكنه فتح باب الكرة والعوم بنفس السهولة التى تعوم بها تلك السمكة . إلا أنه لو كان حاول ذلك ما لقى حتفه غرقاً ، إنما كانت قطرات الماء الأولى اندفعت خلال جسمه بقوة تحت الضغط الهائل كأنها قذائف .

ولم يتقدم الغواصان فى ذلك اليوم عن ذلك الحد ، لكنهما حاولا الغوص مرتين فى السنوات الأربع التالية فى نفس تلك الكرة الصغيرة العتيدة المصنوعة من الصلب ، ووصلا فى المرة الأخيرة فى أغسطس عام ١٩٣٤ إلى عمق ٩٠٨ أمتار . وعند هذا المستوى شاهدا مخلوقات أضخم وأغرب من تلك التى وجداها

فى طبقات الماء الأعلى . شاهدا مخلوقات عاش أسلاف بعضها فى أغوار المحيط زمناً قد يصل إلى ملايين السنين قبل أن يوجد الإنسان .

وعلى الرغم من أن غوصات الدكتور بيب الأولى فى كرة الأعماق التى صنعها أوتيس بارتون فتحت الطريق إلى منطقة لم يرتدها أحد من قبل فإنه لا تزال هناك عشرات الألوف من الأمتار من أعماق المحيط باقية تنتظر الاستكشاف . وسوف تبدو كرة الأعماق لعلماء المستقبل المستكشفين بدائية ومضحكة كما حدث للقاطرة البخارية الأولى أو الطائرة الأولى ، إلا أن كرة الأعماق الأولى جعلت فى استطاعة الإنسان زيارة العوالم المجهولة .

ولقد غاص ، حديثاً ، الدكتور أوغسطس بيكارد العالم البلچيكى وبعض ضباط البحرية الفرنسية إلى عمق يزيد على ٣٠٠٠ متر فى البحر المتوسط أكثر من مرة ! وربما نتعلم كيف أن الحيتان يمكنها الغوص آلاف الأمتار دون الاستعانة بكرة الأعماق ، فى حين أن الإنسان لا يمكنه ذلك ، وربما نعرف شيئاً عن ثعابين البحر التى تعيش فى كهوف أعماق البحار المظلمة .

بل ربما نتعلم الكيفية التى تتحكم بها كائنات الأعماق الحية فى أضوائها لترشدها فى طريقها خلال الظلمات .

لقد انفتح باب آخر عظيم للمعرفة على مصراعيه . وما هى إلا مسألة وقت حتى يمكننا جميعاً ولوجه .

على الأرض فى طبقات الجو العليا

قهر جبل ماكينلى :

لقد تم أخيراً تسلق أعلى جبل فى آسيا ، بل فى العالم ، فبعد سنين من الصراع تم للإنسان ما بدا له مستحيلا فى يوم من الأيام . إلا أنه على الرغم من أن جبل إفرست سوف لا يطويه النسيان ، فمن المحتمل ألا تسترعى قصة البطولة التى تروى قهره انتباه أكثر من متسلقى الجبال .

على أن الجبال جميعها لا تفقد عظمتها بمجرد أن يقهرها الإنسان ، فثمة قمة عظيمة تسلقها الناس أكثر من ست مرات حتى الآن ، وعلى الرغم من ذلك فلا تزال من أبهر الجبال وأجملها . ومن الغريب أنها لم تحدد على الخارطة أو تعط اسماً إلا بعد تسمية جبل إفرست وقياسه بأربعين عاماً .

وربما نلتمس العذر ، للذين لا يعرفون الجبال من خبرة التسلق ، فهم يعتقدون أن الجبل هو جبل ، وذلك هو كل ما فى الأمر ، وليس هناك ما هو أبعد

عن الصواب من ذلك ، كما يعلم جميع رواد التسلق . فحقيق أن جبل إفرست هو أعلى جبل فى العالم ، ولقد أثبت أنه من أصعبها تسلقاً ، إلا أنه توجد قمم أوطأ منه لم يمكن تسلقها على الإطلاق على الرغم من فن المتسلقين .

وتوجد جبال فى أمريكا الجنوبية يزيد ارتفاعها على ٦٠٠٠ متر يمكن أن يتسلقها أناس دون أن تطأ أقدامهم الثلج أو الجليد . ومن ناحية أخرى توجد جبال فى أمريكا الشمالية يبلغ ارتفاعها نصف ذلك الارتفاع ، صعبة المراس ولا يمكن أن يقهرها إلا أصلب المتسلقين عوداً وأكثرهم خبرة .

وحتى قبل بدء القرن الحالى ببضع سنين ، لم يكن هناك من يستطيع أن يحدد أعلى جبل بين الجبال التى تقع فى شمال المكسيك ، وتواترت الشائعات بوجود قمة عظيمة فى قلب ألاسكا يحتمل أن تكون أعلى قمة فى العالم ، إلا أنه كان من الصعب الوصول إلى تلك المنطقة ، وبقيت سنين عديدة بمنأى عن الأقدام ، ولم يمكن لأى شخص القرب منها قرباً كافياً للتحقق من ذلك

وفى عام ١٨٨٩ وقع بصر أحد الباحثين عن الذهب على الجبل، وحكى عنه بحماسة شديدة عند عودته للمدينة . وفى عام ١٨٩٦ اقترب شخص آخر من القمة المجهولة الاسم قرباً يكفى لتخمين ارتفاعها، وجاء التخمين حسناً فيما يتصل بالارتفاع ، لكنه لم يكن موفقاً ، فى نظر الكثيرين ، فى اختياره للاسم الذى أطلقه عليه . فلقد قال إن ارتفاع الجبل كان ٦٠٩٠ متراً وأسماه جبل ماكينلى نسبة إلى أحد السادة غير المرموقين ، وكان مرشحاً لرياسة الولايات المتحدة الأمريكية فى ذلك العام .

ومن حسن الحظ أو سوئه التصق الاسم الذى اختاره الباحث بالجبل وحدد جبل ماكينلى فى النهاية على المصورة « الخارطة » إلى الجنوب قليلا من وسط ألاسكا بالضبط . ولكن لم يحاول أى إنسان تسلقه إلا بعد مرور سبعة أعوام على ذلك ، وحتى تلك المحاولة انتهت قبل أن تترك أثراً فى جليده .

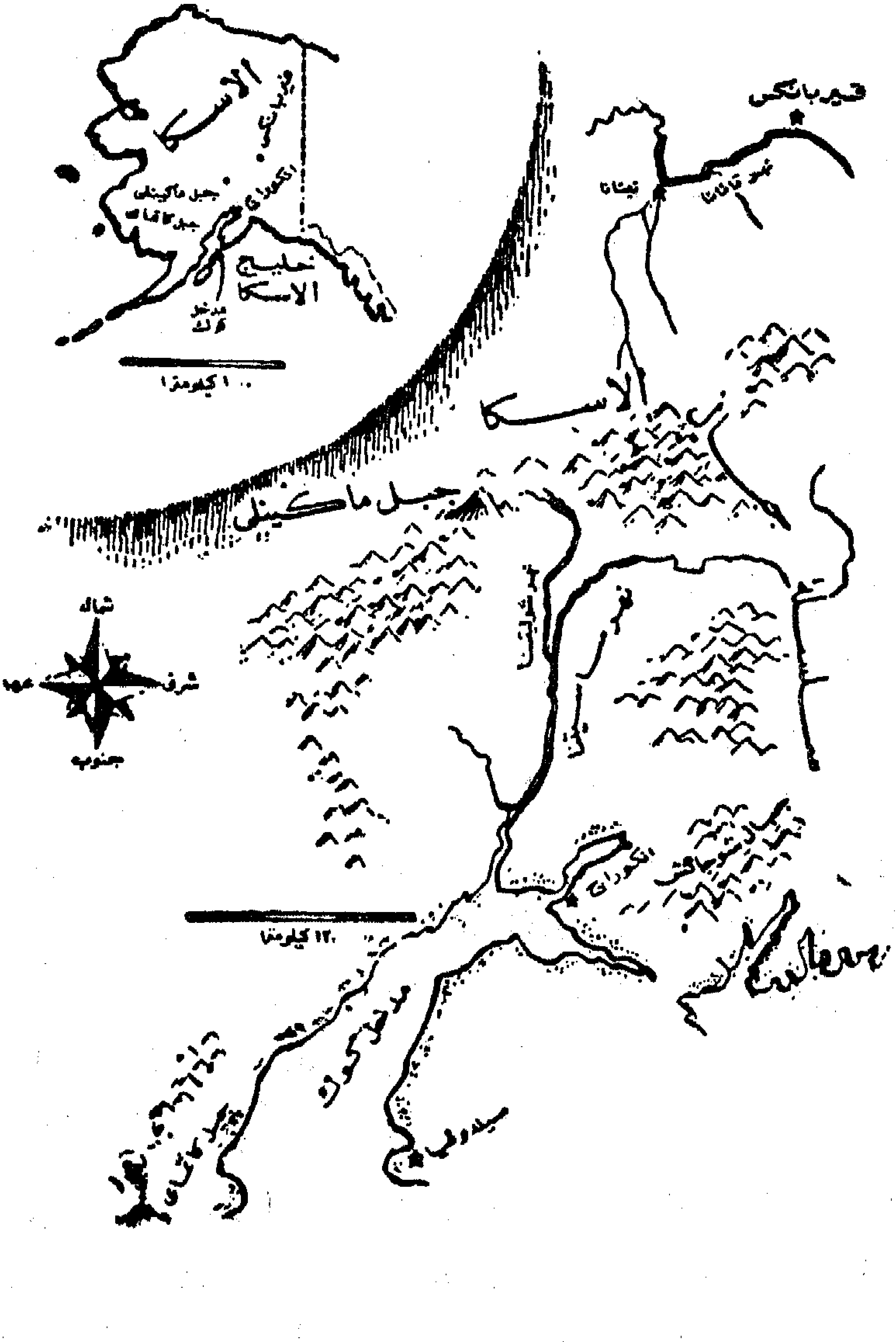
الاسكا
فيربانكس
انكوراج
جبل ماكينلي
خليج الاسكا
مدخل كوك
١٠٠ كيلومترا
فيربانكس
نهر تانانا
نينانا
الاسكا
جبل ماكينلي
شمال
شرق
غرب
جنوب
١٢٠ كيلومترا
انكوراج
مدخل كوك
سيلدوفيا

لقد كان هناك سبب قوىّ للفشل ؛ فكان ذلك الجبل الضخم الذى أسماه الهنود « العظيم » قائماً فى وسط القفار الموحشة التى لم تحدد على المصوّرة « الخارطة » على الإطلاق ، وكانت أقرب البقاع المأهولة بالسكان إليه فيما عدا معسكرات المناجم أو التجمعات التجارية ، هى فيربانكس الواقعة على نهر تانانا على بعد ٢٤٠ كيلو متراً إلى شماله الشرقى ، وأنشوراج الواقعة على شاطئ مدخل كوك على بعد ٢٤٠ كيلومتراً إلى جنوبه الشرقى . وتفصل بين جبل ما كينلى وبحر بيرنج مسافة تقرب من ٦٤٠ كيلومتراً من الجبال والغابات والأنهار والمستنقعات المتجمدة ، وتقع الحدود الكندية على بعد يزيد على ٤٨٠ كيلومتراً شرقاً يقطع فيها المسافر المزيد من الغابات والسلاسل الجبلية والأنهار العظمى .

وربما كانت القمة ذاتها أعظم كتلة جبلية مفردة فى العالم . فيرتفع جبل ما كينلى مالا يقل عن ٥٤٠٠ متر فوق التلال المنخفضة التى يبرز منها ، على عكس جبل إفرست فى آسيا الذى يرتفع أكثر قليلا من ٣٩٠٠ متر فوق قاعدته عند مدخل ثلاجة رونجبك ، ويتكون سكان تلال جبل ما كينلى من الوعول والدببة وخراف الجبال والذئاب فقط ، وهناك اختلاف آخر بين جبل إفرست وجبل ما كينلى وهو أن الـ ٥٤٠٠ متر التى يرتفعها هذا الأخير مغطاة بصفة مستمرة بالثلوج والجليد .

لا يمكن لجبل مثل جبل ما كينلى أن يوجد ببساطة دون إغراء الناس على تسلقه حتى القمة ، حتى ولو كان قائماً فى وسط القفار الموحشة . ومن الغريب أن الناس البدائيين لم يراودهم الشعور بتحدى هذا الجبل الشامخ ، أو إذا كانوا قد شعروا بهذا الشعور ، فلا بد أن الخوف ثبّط هممهم . فلقد كانوا يعتقدون أن الأماكن العالية هى مأوى الشياطين المتوحشة والآلهة التى يهمها ألا يقلقها أحد . وربما يوجد بين المتحضرين أيضاً بعض الناس الذين لا يقدمون على تسلق المرتفعات التى تحيط بمساكنهم ؛ إذ أنهم واثقون من عدم وجود أى شىء على الجانب الآخر من تلك المرتفعات .

إلا أن الغالب هو أن الإنسان فضولى ومخاطر ، وقد أضفى هذا التشوق للمخاطرة ميزة أخرى على جبل ماكينلى . فلقد بلغ من جاذبيته للناس أن أحدهم على الأقل ، حاول أن يكسو نفسه برداء العظمة عندما ادعى أنه وصل إلى قمة الجبل ، فى حين أنه لم يقترب منه فى الواقع .

وجبل ماكينلى يشبه جبل إفرست فى أنه عملت رحلات عديدة قبل أى محاولة لتسلقه ، وذلك قصد الاهتداء إلى طريق الوصول إليه .

بدأ الهجوم على جبل ماكينلى بحماسة فى عام ١٩٠٦ ، ولو أنه جرت محاولة قبل ذلك فى عام١٩٠٣ وباءت تلك المحاولة الأولى بالفشل ؛ إذ أنها وصلت إلى قاعدة الكتلة الجبلية العظيمة فقط ، ولم تضف شيئاً إلى المعرفة البشرية فيما يتصل بكيفية الوصول إلى القمة .

وفى منتصف شهر مايو عام١٩٠٦ انضم الأستاذ هيرشل باركر والمستر بلمور براون والدكتور فريدريك أ. كوك إلى فرقة من الجيش فى رحلة إلى جبل ماكينلى ، وبدأت الرحلة من سيلدوفيا القريبة من خليج كوك بألاسكا والتى تبعد ٤٠٠ كيلومتر عن الجبل العظيم الغامض . وكان الفريق كبيراً وزود بعشرين حصاناً للأحمال وقارب بخارى وكثير من العمال والسياس ومسّاح ومصوّر ، لقد كانت رحلة حقيقية زودت بالطعام الوفير والخبرات العديدة ، كما دلت على ذلك جميع المظاهر .

كان الأستاذ باركر من رواد الجبال ذوى الخبرة ، وكذلك كان المستر براون ، أما الدكتور كوك فقد سبق له أن صحب بيرى إلى منطقة القطب الشمالى ، وجاب الكثير من القفار الموحشة جنوب ماكينلى . وأمضت البعثة الفترة من منتصف مايو حتى أغسطس تصارع الماء والثلج والجليد والمستنقعات والبعوض . وعلى الرغم من أنها لم تقترب مسافة ملحوظة من هدفها ، فإنها أثبتت أن الخيل حيوانات لا تصلح للحمل فى بعثة مثل هذه البعثة . وظهر واضحاً من الاكتشافات

التى سجلت فى هذه الرحلة أنه لا يمكن تسلق جبل ماكينلى من الناحية الجنوبية ، وظهرت نتيجة أخرى لهذه الرحلة الكشفية تعتبر من أغرب الأمور الخيالية فى تاريخ تسلق الجبال بأجمعه .

بدأت القصة العجيبة عندما انقضت بعثة عام ١٩٠٦ فى صيف ذلك العام ، وبدلا من أن يخلد الدكتور كوك إلى الراحة عقد العزم على العودة إلى أعلى نهر سسيتنا ليرى أهناك أية دلالة على إمكان الوصول إلى ذلك الجبل الذى أطلق عليه هنود الشمال اسم « الدينالى » أو « العظيم » عن ذلك الطريق . وأراد براون أن يصحبه فى هذه الرحلة إلا أن الدكتور كوك أصر على أنه سيقتصر على تأمل ما حوله ، ولن يقوم بعمل استكشاف حقيقى .أضف إلى ذلك أنه فضل أن يقوم براون بصيد بعض الحيوانات فى جبال شوجاتش لصالحه ، وذلك لأن أحد المتاحف فى الشرق طلب من كوك — كما جاء على لسانه — أن يحصل على بعض عينات من حيوانات ألاسكا من هذه المنطقة .

وذهب براون وهو متبرم إلى حد ما ليقوم بالصيد ، ثم عاد إلى سيلدوفيا حيث سمع إشاعة ، تواترت بعد فترة قصيرة ، بأن الدكتور كوك تسلق جبل ماكينلى ، ولم يتردد براون فى نفى هذه الإشاعة ؛ إذ أنه كان يعلم كما كان يعلم الآخرون الذين يعرفون تلك البلاد أن الدكتور كوك لم يكن لديه الوقت ليصل إلى الجبل ثم يعود . ومن باب أولى ليتسلقه .

ولشد ما كانت دهشة براون عندما ظهر الدكتور كوك وصاحبه فى سيلدوفيا فى الحال ، بل عندما قرر الدكتور أنه وصل إلى قمة الجبل . ولكن ظلت الشكوك تساور براون فانتحى جانباً بإد باريل رفيق الدكتور كوك والذى كان صديقاً حميماً له ، وسأله عما كان يعرفه عن جبل ماكينلى ، ولم يشأ باريل أن يقول إنه وصل إلى الجبل ، بل أجابه بأن قال : « اذهب وسل كوك » . وبذلك تأكد براون ، إلا أن يديه ظلتا مكتوفتين حتى بعد أن نشر الدكتور العجيب كتاباً عن « قمة قارتنا » متضمنا صورة ذيلت بالعبارة « قمة جبل ماكينلى » .

ولقد رفض كوك – الذى ادعى فى ذلك الوقت أيضاً الوصول إلى القطب الشمالى – الإجابة عن الأسئلة أمام لجنة من نادى المستكشفين ، فجاء على لسانه أن عقله تبلبل من التجارب المزعجة التى مرّ بها ، بحيث إنه لا يمكنه الكلام دون الرجوع إلى يومياته . وطلب من اللجنة إمهاله أسبوعين ليستعد فيهما ، واختفى فى هذين الأسبوعين تاركاً العالم بين مصدق ومكذب .

كان هذا هو الموقف عام ١٩١٠ ، أى بعد ماوصف جبل ما كينلى لأول مرة بأكثر من عشرين عاماً ، وكان الناس تتملكهم الحيرة فى حين كانت القمة الضخمة تشرف عليهم من عليائها كعهدها من آلاف السنين . وتبدو بجمالها وهى فى كسوتها البيضاء الموشحة بالذهب ، المرصعة بألوان ظلال الجليد الأرجوانية ، راسية على الأرض وكأنها فى خفة السحاب ، ترى هل وطئت قدم الإنسان هذه القمة ؟ أم أنها ظلت حتى ذلك الوقت بمنأى عن الأقدام فلم تمسّ ؟ لقد كان الدكتور هيرشل باركر وبلمور براون يؤمنان بما لديهما من مبررات ، أن أحداً لم يتسلق تلك القمة ، وظل الجبل العظيم مستحوذاً عليهما ، وكانا يعلمان أنه لابد لهما من المحاولة مرة أخرى ، ولو كان ذلك بغرض تكذيب ادعاء الدكتور فقط .

وفى أوائل مايو أقلع باركر وبراون مع فريق معدّ إعداداً تامًّا لكنهم لم يأخذوا معهم خيلا هذه المرة . ومرة أخرى سلكا الطريق إلى الجبل العظيم من ناحية الجنوب . وإننا إذا تأملنا الخارطة نجد أن سلسلة ألاسكا الكبيرة التى يكون جبل ماكينلى جزءاً منها تمتد شمالا وشرقاً كجناح منشور صاعد من شبه جزيرة ألاسكا غربى خليج كوك . وتغطى المنطقة الواقعة جنوب شرقى هذا الجناح الجبلى العظيم شبكة من الأنهار الحجرية السريعة التى تصب فى خليج ألاسكا وتجرى فى تلك الأنهار السريعة مياه ثلجية من الثلاجات الكبيرة فى السلسلة الجبلية العظيمة .

ولقد بدا واضحاً لباركر وبراون أن القافلة إذا اتبعت مجرى أكبر الأنهار

إلى مصادره فإنها لا بدّ واصلة إلى أكبر الثلاجات التى تؤدى –على جميع الاحتمالات – إلى أكبر انحدارات الجبل . فاختار المستكشفان ، لهذا الغرض ، نهر « سسيتنا » الذى يصب فى النهاية الشمالية لخليج كوك . ثم اتبعا رافده « الشوليتنا » إلى نقطة تبعد ٦٤ كيلومتراً جنوب شرقى الجبل حيث توجد ثلاجة عظيمة يتدفق منها فى النهر سيل جارف من الماء الثلجى الناصع البياض ، وهنا أقامت القافلة معسكرها الأساسى بعد سفر استمر ستة أسابيع تقريباً ، وأخذوا يستعدون لما حسبوه المرحلة الأخيرة فى قهر ماكينلى .

ومرة أخرى كان عليهم أن يتعلموا أن ثمة أشياء فى سلسلة ألاسكا يندر أن تبدو على حقيقتها . فكانت الثلاجة التى اعتزموا سلوك طريقها تبدو كطريق ثلجى متسع يؤدى إلى الجبل ، لكنها كانت فى الحقيقة أحبولة قاتلة من الجروف الثلجية والشقوق العميقة ، المغطاة بغطاء خادع من الجليد الذى كانت تتألق عليه الشمس تألقاً باهراً غالباً ما كان يضطره المار إلى التوقف عن المسير من شدة آلام العمى الجليدى ، وفى كل مرة توقفت فيها القافلة كان المستكشفون يحاصرون ببرودة العواصف الثلجية ، وانجراف الجليد .

وعلى الرغم من أن المتسلقين صمدوا حتى أواخر يولية فإنهم كانوا غير قادرين على إحراز تقدم كبير . لكن جهودهم لم تذهب هباء ؛ فعندما وصلوا إلى منتصف الطريق فى أثناء صعودهم نحو الثلاجة العظيمة ، رأوا وادياً ثلجياً بين الجروف الصخرية المغطاة بالجليد . وكانت هذه النقطة هى آخر ما تمكن الدكتور كوك من الوصول إليه فى الفترة التى تغيبها ، واعتقد رجال القافلة أن الصور التى نشرها فى كتابه والتى ادعى أنها صور قمة جبل ماكينلى لا بد أن تكون قد أخذت قريباً من هذه المنطقة ، وسرعان ما تحققوا من صحة اعتقادهم عندما تسلقوا الجرف الذى يقع عند رأس الوادى .

والتقط بلمور براون صورة تشبه تماماً الصورة التى أطلق عليها الدكتور كوك قمة أعظم جبل فى أمريكا الشمالية . إلا أن براون كان وهو يلتقط الصورة واقفاً

على ارتفاع يقل عن ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر وعلى بعد ٣٢ كيلومتراً من ماكينلى .

ومرة أخرى رجعت القفار الشاسعة التى تحيط بماكينلى إلى حالتها الطبيعية فكانت الوعول تهيم على سطح التلال لايزعجها إلا الذئاب ، وفى الصخور الشامخة كانت الخراف الجبلية ترعى لايكدر صفوها مكدر ، أما الجزء الأكبر من « العظيم » فكان شامخاً فى بياضه الناصع ضخماً بلغ عنان السماء يناطح الشمس والسحاب .

إلا أن هذا العالم ليس عالم سكون ، فكانت ملايين الأطنان من الثلج المتدفق من على أكتاف الجبل تهدر وتصلصل ، كمدفعية الجيش ، فى طريقها إلى أحواض الثلاجات العميقة . ومن الصخور الشديدة الانحدار كانت تنهار جبال ثلجية بأكملها انهياراً راعداً يتقدمها الغبار الثلجى متدحرجاً فى سحب يبلغ ارتفاعها آلاف الأمتار . أما فى أعلى الأعالى فكانت قمة ماكينلى الناعمة تتألق فى أشعة الشمس الساطعة فى اطمئنان كأنها تقول : « هيا ، تقدم وحاول الصعود إلىّ إذا أردت لكى توجه بنظرك إلى أسفل ، وانظر ما لا بد لك من مصارعته » .

وبعد سنتين من المحاولة الثانية الفاشلة كان الأستاذ باركر وبلمور براون مع أرثر أتن وميرل لافوى على استعداد لمحاولة أخرى ، وبدأوا رحلتهم هذه المرة فى يناير حيث لا يمكن ركوب القوارب فى الوصول إلى أعالى الأنهار ، وكانت مياه نهر « سسيتنا » و « شوليتنا » الثلجية غارقة فى سكون عميق تحت عدة أمتار من الثلوج المتراكمة عليها . واستخدمت البعثة فرقة من الكلاب فى صعود المضايق التى سبق لها أن صعدتها فى قارب بخارى .

وفى ١٩ من فبراير عام ١٩١٢ أقلعوا من مستعمرة سسيتنا الصغيرة فى رحلة تزيد على مسيرة ١٦٠ كليو متراً نحو الشمال . وكانوا يأملون فى أثناء تقدمهم أن يعثروا على طريق يقودهم عبر السلسلة العظيمة إلى الجانب الشمالى الشرقى

لجبل ماكينلى . واعتقد رجال البعثة أن هذا الاتجاه كان الاتجاه الوحيد الذى يمكّنهم من تسلق الجبل .

وبعد شهر تقريباً ، وفى يوم ١٣ من مارس ، وجدوا ضالتهم ، نهراً مجهولا غير معروف الاسم ، يجرى فى التواء خلال غور عميق من الشمال الغربى . ولم يساورهم أدنى شك فى أن هذا النهر يقودهم فى اتجاه الوجه الشمالى الشرقى للجبل ، ولكن لم يمكن لأى شخص أن يتنبأ بالعقبات التى تقابلهم فى الطريق .

وكان رجال القافلة لا يزالون على بعد ٦٤ كيلومتراً من المكان الذى كانوا يأملون أن يجدوا عنده الطريق الذى يسلكونه ليمكنهم من بدء التسلق ، ولو أنهم وجدوا بدلا منه جدران الصخور والثلج شديد الانحدار التى أوقفت تقدمهم فى المرتين السابقتين لكانوا أصيبوا بالهزيمة مرة أخرى .

والآن يجب علينا أن نتذكر أن تسلق الجبال فى الشمال الأمريكى أمر يختلف عن التسلق فى منطقة جبل إفرست فى شمال الهند حيث يمكن استئجار الحمالين لحمل الطعام والعدد ، فى ألاسكا يتحتم على المتسلقين أن يحملوا أمتعتهم عندما يصلون إلى النقطة التى لا يمكن للكلاب الاستمرار فى السير بعدها .

وفى ١٣ من مارس عندما وصلت بعثة باركر وبراون إلى النهر المجهول المؤدى إلى سلسلة جبال ألاسكا ، كان ما معهم من مؤونة ومعدات يكفى أربعة أشخاص لمدة أربعة أشهر ، وكان لابد من حمل كل ذلك فوق الثلاجات والمنحدرات الثلجية غير السوية فى طقس بلغت درجة حرارته الصفر وجليد لا سع يعمى الأبصار ، لمسافة تزيد على ٦٤ كيلومتراً دون الاستعانة « بخارطة » أو أثر لإرشاد الرجال والكلاب . وكان الانحدار فى بعض الأماكن شديداً بحيث كان عليهم أن يعلقوا الزلاقات فى أحبال ربطت فى فؤوس جليد ثبتت فى الجليد . وبعد أسابيع ثلاثةمن التقدم المحطم للقلوب فى ظروف جوية قاسية جداً وجدت القافلة طريقاً وعبرت السلسلة عند أعلى نقطة فيه ، وكان ذلك

وكان الطريق شديد الانحدار فى بعض الأماكن

الطريق فرجة على ارتفاع ١٨٠٠ متر فى الحاجز الجبلى العظيم .

وبعد أسبوع رأوا تحتهم – وكانوا هابطين – شيئاً أمكنهم تعرفه ؛ ذلك هو ثلاجة مالدرو العظيمة التى نسب اسمها إلى الطوبرغواف الذى وصفها لأول مرة ، ويجرى هذا النهر الثلجى الضخم فى جلال وانعطاف من أكتاف الجبل العظيم إلى الأرض المغطاة بالغابات على الحافة الشمالية لسلسلة ألاسكا الجبلية .

وفى ٢٤ أبريل كانوا قد وصلوا إلى ثلاجة مالدرو وعبروا القنوات التى تخرج منها ، ثم بدأوا فى التسلق مرة أخرى وهم يجذبون وراءهم ٢٧٠ كيلوجراماً من الأحمال إلى ارتفاع ٧٥٠ متراً . وهنا فوق خط الأشجار أقاموا معسكرهم بين الحورات وأشجار القطن البرى المعوقة ولا يفصلهم عن جبل ماكينلى غير ٣٢ كيلومتراً فقط ! فاستكانوا للراحة استعداداً للهجمة النهائية ، وأكلوا لحماً عبيطاً « طازجاً » من الخراف الجبلية التى تمكن براون من صيدها . وكانوا بين الحين والحين ، يقومون برحلات قصيرة نحو الجبل لدراسة أحسن الطرق المؤدية للقمة .

وفى ٢٨ من أبريل كانوا على أهبة الاستعداد ، وكان عليهم أن يسيروا ١٦ كيلومتراً تقريباً أعلى ثلاجة مالدرو فى طريق محفوف بمخاطر العثرات والجليد المتشقق . ولم يكن من الممكن حمل المؤونة والمعدات تلك المسافة فى وقت كاف دون الاستعانة بالكلاب .

وعند ارتفاع ٣٠٠٠ متر تقريباً أقاموا معسكرهم فى زوبعة ثلجية قاسية على بقعة مستوية تحت مسقط ثلجى هائل مباشرة وقريباً من رأس الثلاجة . وقد اضطروا إلى الانتظار تحت ظروف الطقس القاسية . وفى هذا المعسكر أتاهم الإنذار الأول ، فكان الجبل يستجمع كل قوته ليحفظ نفسه من تدنيس الإنسان له ، ولندع بلمور براون يروى لنا ذلك بنفس كلماته :

« كان الوقت بعد الغداء ، حيث كان الأستاذ باركر نائماً ، وكنت أتجاذب الحديث مع لافوى همساً ، فى حين كنا منصتين لفرقعة الجليد الذى تقذف به العاصفة جدران مأوانا الواهن . وفجأة شعرنا أن الثلاجة تميد تحتنا

وأرعد الجبل القريب منا بانهيارات ثلجية . وقد ظننت أننا سقطنا فى كهف ثلجى ، أو أن السيراك (بروز فى المسقط الثلجى الذى كان يعلوهم) كان يتساقط آخذنا معه ، ولكن ردتنا إلى رشدنا بعد لحظة صدمة أخرى ، وعندما جالت بخاطرى فكرة الزلزال كان الهواء قد أرعد وأخذ يخفق تحت تأثير قوة الانهيارات التى لا حصر لها . لقد كان صوتاً مريعاً ومخيفاً ، وكم كنا سعداء عندما سكتت الأصداء وعدنا نسمع مرة أخرى صوت الريح والجليد الكثيب » .

وحل يوم ٥ يونية قبل أن يكون كل شيء معداً للهجمة النهائية على القمة . وقد تم نقل المؤن إلى ارتفاع ٣٣٠٠ متر ، أما بعد ذلك فكان لابد من حمل الأشياء الضرورية للتسلق الأعلى على ظهور المتسلقين ، على أن الطقس لم يكن متعاوناً ، فقد كانوا فى وقت متأخر .

وفى ٨ من يونية انتاب الرعب أعضاء الفريق بعد أن قضوا ثلاثة أيام فى عاصفة ثلجية شلت نشاطهم ، وكان السبب فى فزعهم صوت غير عادى خيل إليهم أنه صادر من الثلاجة التى كانوا يقفون عليها . وبدا لهم أن الثلج يزأر ويتشقق وسمعت أصداؤه تأتيهم بصوت هادر كأنها أصوات مدافع تنطلق من بعيد . ولو أن رجال الفريق كانوا يعلمون سبب ذلك الصوت ، لكان لهم الحق فى القلق ، ولكنهم لم يمكنهم فهم السبب حتى بعد أن وجدوا رماداً لم يعرفوا مصدره فى القدر التى كانوا يستخدمونها فى إذابة الجليد لعمل الشاى .

وعلى الرغم من أن الضوضاء بدت كأنها صادرة من الثلاجة فإن سببها كان يبعد عنهم مسافة ٤٨٠ كيلو متراً فى شبه جزيرة ألاسكا . حيث ثار فجأة بركان قديم يطلق عليه « بركان كاتماى » يقع فى الجزء الجنوبى الغربى من البلاد وعلى ارتفاع ٢٢٥ متراً . ولقد حدث هذا الفوران الذى يعتبر أعظم فوران فى العصر الحديث يوم ٨ يونية ١٩١٢ . وكان ذلك غريباً ؛ إذ أن البركان كان خاملا عدة أعوام . ولقد كانت الصدمة التى نتجت عن هذه الحادثة هى

التى ارتجفت منها صخور وثلاجات جبل ماكينلى وأحدثت الانهيارات الخطرة . وربما كان للفوران علاقة بالطقس القاسى الذى جاء فى غير موعده ، والذى كان السبب فى متاعب المتسلقين وهزيمتهم النهائية .

ووصل باركر وبراون ولاڤوى إلى الجرف الشمالى الشرقى العظيم فى ١٩ من يونية ، وقاموا بتجربة تسلق ، هذا على الرغم من الجليد والسحب المتواصلة وخطر الانهيارات الذى كان يهددهم باستمرار . (أما آتن فكان قد عاد إلى القاعدة بكلاب الفريق) . وارتفعوا فى هذا التسلق التجريبى إلى ٣٩٦٠ متراً على جرف من الجليد شبيه بحد السكين كان انحداره يتراوح بين ٥٠° و٦٠° على الجانبين بطول ٦٠٠ متر على أحد الجانبين و١٥٠٠ متر على الجانب الآخر . ولقد كان انحدار هذا الجرف كبيراً جداً مما اضطر براون إلى قطع قمته ليسوى مكاناً يمكنهم الوقوف عليه .

ولقد اعتقدوا فى بادئ الأمر أنهم يستطيعون نقل مؤنهم إلى التجويف المعروف بالحوض العظيم الذى يفصل قمة الجبل الشمالية عن قمته الجنوبية فى أقل من يوم . لكنهم استغرقوا فى الواقع ثلاثة أيام ليصلوا إلى مدخل الحوض . وهناك تعرضوا لعذاب آخر بالإضافة إلى محنة العواصف الثلجية المتزايدة ، ذلك عندما اكتشفوا ، وهم على ارتفاع ٥٤٠٠ متر ، أن الصنف الرئيسى فى غذائهم — هريس اللحم — لم يعد يناسبهم . ولقد كان هذا الأمر خطيراً لأنه لم يكن لديهم طعام آخر ليمدهم بالطاقة والوقاية من البرد حيث كانت درجة الحرارة على ارتفاع ٤٨٠٠ متر فى السابعة والنصف من مساء ٢٦ من يونية ١٩° تحت الصفر .

وفى ٢٧ من يونية ، استولى عليهم الاعتقاد بأن صباح الغد سوف يشرق عليهم وهم فوق القمة ، هذا على الرغم من الطعام غير المناسب وعدم قدرتهم على النوم المريح فى البرد القارس . فلقد انتهت أسوأ مرحلة للتسلق . وكان ميل

وحملهم التسلق التجريبى إلى حافة حادة من الجليد

الطريق يسير بالتدريج تقريباً إلى أعلى ابتداء من الحوض العظيم . وبدا الأمر بسيطاً .

وعندما وصلوا إلى ارتفاع ٥٧٠٠ متر ، كانوا قد تركوا وراءهم آخر صخرة عالية وأمكنهم أن يروا لأول مرة القمة فوقهم . إلا أنه كان من الضرورى أن ينحتوا درجات فى الجليد . ولما أصبحوا على مقربة من ارتفاع ٦٠٠٠ متر حيث أفقد البرد القارس أرجلهم وأيديهم الإحساس تقريباً شعروا بلفح الريح المحمل بالثلج منبئاً بقدوم عاصفة ثلجية أخرى نحوهم ، ومن خلال الجليد اللاسع أمكنهم أن يروا أن الميل الذى أمامهم كان أقل انحداراً بكثير . لقد كانت بداية القمة الحقيقية! وواصلت الريح فى الاشتداد ، واستمرت تعصف بوجوههم المتجمدة .

كان براون سابقاً زميليه فعاد إليهما ونحت ثلاثتهم مقعداً فى الثلج ، ولكنهم ما كادوا يفعلون ذلك حتى تبين لهم أنهم لا يمكنهم البقاء فى هذه البقعة ؛ فقد بدأوا يجمدون ، وأراد الدكتور باركر مواصلة الصعود إلا أن براون كان يعرف أن ذلك مستحيل ، وأشار فى صمت إلى خط صعودهم ، فرأوا أن مواقع أقدامهم كانت قد غطيت بالجليد .

وتلمسوا طريقهم هابطين فى العاصفة ، وكانوا يتحسسون خطواتهم بأطراف فؤوس الثلج التى كانت معهم . ووصلوا إلى أعلى معسكر لهم فيما بين السابعة والنصف والثامنة من ذلك المساء حيث وجدوا ما يحميهم نسبياً ، وكان قد أعياهم صراعهم للريح الباردة التى كانت تهب بسرعة ٨٨ كيلومتراً فى الساعة ، فى درجة حرارة ١٥ تحت الصفر .

ولبثوا فى معسكرهم طوال اليوم التالى ؛ إذ أن الجليد الجديد غير مأمون السير عليه . وأمضوا وقتهم فى الحديث عن الطعام والطقس ، وفى محاولة تجفيف ملابسهم المملوءة بالثلج .

وفى الساعة الثالثة من صباح أول يولية أقلع ثلاثتهم فى ضوء النهار الساطع

وهبت عليهم عاصفة ثلجية أخرى

نحو القمة مرة أخرى ، ولكن خفقت قلوبهم وهم فى تسلقهم ؛ فقد كانت هناك كتلة سحابية كثيفة سوداء تتدحرج إلى أعلى وادى سسيتنا ، ووصل المتسلقون إلى ارتفاع ٥٧٩٠ متراً قبل أن تحيط العاصفة الثلجية السوداء بالجبل مرة أخرى. وهكذا انتصر «الدينالى» أو «العظيم» مرة أخرى ! فهؤلاء ثلاثة رجال أبطال يتخبطون تخبط الأعمى وهم هابطون فى العاصفة يائسين فاقدى الإحساس ، وقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى إعلان هزيمتهم بعد صراع استمر أربعة أشهر ونصف الشهر .

لقد كانت هزيمة نهائية بالنسبة لباركر وبراون ، إلا أن هذين الرائدين لذلك الجبل العظيم لم يشعرا بأن هزيمتهما تعد فشلا ، فعلى أية حال لقد استكشفا وفتحا الطريق للقمة وبلغا قمة الجبل ، وفشلهما الوحيد ينحصر فى أنهما لم يصلا إلى أعلى جزء للقمة — أى القمة الحقيقية .

وفى ٤ من يولية وصل المتسلقون الذين نال منهم الإعياء إلى معسكرهم الأساسى حيث كان ينتظرهم أرثر آتن والكلاب . وهنا أخذوا قسطهم من الراحة وهم يصنفون معداتهم ويجففونها . وفى ٦ من يولية وبينما هم جالسون فى معسكرهم يتناقشون فى أمر الطقس الذى كان منذراً بالويل إذ سمعوا فجأة صوتاً يشبه الرعد يأتى من اتجاه جبل ماكينلى ، وغطى الجبال ضباب مباغت بدا كأنه يزمجر ويولول .

ثم انهار المعسكر عليهم وانقلب كل شىء غير مثبت ، بما فى ذلك الموقد رأساً على عقب ، وانفصلت صخرة ضخمة تزن مئات الأرطال عن الأرض واستقرت أمام خيمتهم على بعد عدة أمتار منهم . وتماوجت الأرض وتدحرجت واهتزت مثل الهلام . وانفصل الوجه الغربى لجبل بروكس ، وهو قمة يبلغ ارتفاعها ٣٦٠٠ متر تقع شرقى ماكينلى ، انفصل هذا الوجه بأكمله عن الجبل وانزلق كأنه انهيار ضخم نحو وادى الثلاجة التى تقع أسفله . وبعد بضع دقائق انتشر غبار الثلج إلى ارتفاع آلاف الكيلومترات فى الهواء ثم اندفع

هابطاً إلى الوادى نحو معسكر رواد الجبال الذين تملكتهم الدهشة .

لقد وجد الرجال الوقت الذى اتسع لتثبيت أطراف خيمتهم بالصخور والزحف تحتها عندما صدمتهم السحابة التى كانت مندفعة إلى أسفل بسرعة٩٦ كيلومتراً فى الساعة ، وواصلت هديرها هابطة إلى الأراضى المنخفضة ، وما إن مرت بهم السحابة حتى زحفوا إلى الخارج ونظروا حولهم فى استغراب ، لقد أصبحت الأنهار الواقعة أسفلهم بلون الشيكولاتة من الطين وفاضت على جسورها . وبدت الجبال التى كانت ناصعة البياض من فوقهم ندية وغشيتها سحابة من الثلج وغبار الصخور .

نظر المستكشفون الأربعة بعضهم إلى بعض فى صمت، لقد تبين لهم أنهم لو كانوا فوق الجبل فى هذه اللحظة لما بقوا أحياء ، لقد عاشوا ، عن طريق المصادفة المحضة فى التوقيت ، فى أعظم زلزال ، وكان من الممكن أن تحطم الأرض المرتجفة مدينة بأجمعها وتقتل أغلب سكانها لو أن هذه المدينة كانت واقعة فى حدود ١٦٠ كيلومتراً .

وفى طريق العودة سمع المتسلقون إشاعة تقول إن بعض المنقبين قد تسلقوا القمة الشمالية للجبل (تنخفض عن القمة الحقيقية بحوالى ٣٠٠ متر) منذ بضعة أسابيع عن طريق فيربانكس التى تقع على بعد ٢٤٠ كيلومتراً إلى الشمال . ولقد تشكك المستكشفون فى هذه الإشاعة ، إذ أنهم رأوا تلك القمة الشمالية وكانوا يعرفون ظروف التسلق فى الجبل .

وبهزيمة أصلب قوة وأحسنها عتاداً ، أرسلت حتى ذلك الوقت لتسلق جبل ماكينلى ، كان الجبل قد استنفد جميع الحيل التى فى جعبته . ولم يكن الدكتور هدسون ستاك رئيس شمامسة يوكون ، يدرى عندما أقلع فى ربيع عام ١٩١٣ أنه كان يقترب من جبل كانت أيامه — كقمة لم يتسلقها إنسان — معدودة .

كان الدكتور ستاك رجلا ضئيلا نحيلا لا يزيد وزنه على ٦٧ كيلوجراماً لكنه كان متسلقاً ذا خبرة . وكان قد أمضى أعواماً كثيرة فى جليد الاسكا

وثلجها اللذين لا يمكن أن يتغيرا ، كما جاء على لسانه ، لمجرد أنها ارتفعت ٦٠٠٠ متر فى الهواء .

وكان اثنان من مصاحبى الدكتور ستاك فى التسلق الواقعى ؛ من أهالى ألاسكا الذين ساروا متجمعين وعلى زلاقات آلاف الكيلومترات من الطرق غير المطروقة فى جميع أنحاء البلاد الشاسعة . وكان الرجل الرابع فى الفريق مبعوثاً شاباً كانت له خبرة سنتين فى الشمال .

لقد كان هؤلاء الرجال يعرفون ، بل كانوا قادرين على استخدام الأراضى بطريقة أفضل من أعضاء بعثة باركر وبراون ، فلم يحملوا معهم كميات غير لازمة من مفرى اللحم ، لأنهم كانوا يعلمون أنه من الممكن العثور على حيوانات الصيد عند معسكرهم الأساسى ، ومن الممكن تجهيز الصيد للغذاء وقت صيده .

أقام الدكتور ستاك مركز قيادته فى نينانا التى تقع على بعد ٨٠ كيلومتراً جنوب غربى فير بانكس وتبعد مسافة تزيد قليلا على ١٦٠ كيلومتراً عن جبل ما كينلى ، ومن هذه النقطة بدأ الدكتور وفريقه اقترابهم من الجبل من الناحية الشمالية ووصل إلى معسكره الأساسى فى أوائل أبريل وأقامه فى التلال السفحية بالقرب من المكان الذى أقام فيه باركر وبراون معسكرهما من قبل . وكان قد اصطحب معه صبيين هنديين من إرسالية نينانا — چونى فريد وإسياس — وعهد إليهما بالعناية بالكلاب وقيادتها . وأعيد إسياس من المعسكر الأساسى إلى نينانا مصطحباً معه إحدى فرقتى الكلاب ، أما چونى فريد فقد بقى فى المعسكر الأساسى ومعه الفرقة الأخرى من الكلاب ، وعلى الرغم من أنه كان يناهز الخامسة عشرة من عمره فإنه كان يقوم بالأعمال المنزلية ويذهب للصيد ويرعى الكلاب .

سلك الدكتور ستاك فى صعوده الجبل طريقاً يطابق تماماً طريق باركر وبراون ، واستخدم الكلاب ، كما استخدمتها البعثة السابقة ، فى حمل المؤن على ثلاجة مالدرو إلى أبعد نقطة ممكنة . ومن هذه النقطة كان على الرجال أن

الدكتور هدسون ستاك

يحملوا أحمالهم على ظهورهم ، فكانوا يودعون مؤنهم فى حفر ويعودون لإحضار المزيد منها. ولقد تم كل ذلك فى العواصف الثلجية والبرد القارس، والغريب أنه بالإضافة إلى ذلك كانت الشمس تلفحهم بحرارتها ، وكان عليهم أن يحملوا أحمالهم فوق ثلوج الثلاجة الموخوزة بالشقوق المختفية تحت الجليد والتى تبلغ أعماقها مئات الأمتار . ولقد قدر الدكتور ستاك أن كل رجل من رجال فريقه الأربعة تسلق فى الواقع أكثر من ١٨٠٠٠ متر بدلا من ٦٠٠٠ متر — المسافة الحقيقية للقمة .

كانت ضرورة حمل الأشياء إلى أعلى ارتفاع ممكن وتركها فى المعسكر ؛ ثم العودة ثانية لإحضار المزيد منها هى الأمر الذى كاد يفسد بعثة ستاك ، فنى أثناء عودتهم من أسفل الجبل ذات يوم مثقلين بالأحمال إلى المعسكر الذى سبق أن أقاموه فى موقع أعلى ، رأوا دخانـًا يعلو الثلاجة ، كان صادراً من موقع معسكرهم !

ويعنى ظهور الدخان فى هذا المكان الذى يعلو خط الأشجار فى الشمال

شيئاً واحداً فقط — هو وجود الإنسان . ولكن من هو الإنسان الذى يمكن أن يكون موجوداً فى المعسكر ؟ أسرع الدكتور ستاك وفريقه حتى وصلوا إلى مخبأ مؤنهم فى الوقت المناسب لإنقاذ جزء من المؤن . فوجدوا النيران تضطرم فى خيمتهم وأفنت كل سكرهم الثمين ، واللبن المجفف ، ومسحوق الخميرة ، والفواكه المجففة « والبسكويت » وأغلب طباقهم والجوارب الاحتياطية والقفازات وأفلام التصوير . وحقيقة لقد دل الدخان على وجود إنسان ، لكن هذا الإنسان كان واحداً منهم ألقى عود ثقاب بإهمال دون أن يتأكد من إطفائه .

وفى ٩ من مايو أرسلت الكلاب ثانية إلى المعسكر الأساسى ، مع چونى فريد ؛ وأقلع المتسلقون فى طريقهم إلى الحوض العلوى الواقع بين قمتى جبل ماكينلى ، متسلقين الجرف الشمالى الشرقى العظيم المؤدى إلى ذلك الحوض من ثلاجة مالدرو ، وكانوا قد قرأوا مقالا كتبه بلمور براون فى إحدى المجلات يصف فيه هذا الجرف . فقال عنه براون إنه : « طريق جليدى مائل شديد الانحدار لكنه عملى » . وهذا هو ما ظهر فى الصورة الفوتوغرافية التى نشرت مع المقال . إلا أن الجرف الذى كان أمامهم لم يكن يشبه على الإطلاق الجرف الذى ظهر فى الصورة ! لقد كان عبارة عن كتلة من الثلج والصخر تفتتت واختلطت قطعها فأصبحت شبيهة بأسنان المنشار .

وقف الدكتور ستاك مشدوهاً غير قادر على تصديق ما رأته عيناه ثم أدرك السر ، فلقد جعل الزلزال الذى روى عنه فريق باركر وبراون — وكان أسوأ زلزال بعد نكبة سان فرانسيسكو فى عام ١٩٠٦ — الطريق الوحيد المعروف لقمة ماكينلى مستحيل الاجتياز تقريباً .

ألقى الدكتور ورفاقه بأنفسهم فى هذا الخليط من الكتل الثلجية الضخمة التى تناهز المنازل فى حجمها ، وشقوا طريقاً فيه ، واستغرق تسلقهم الجرف ثلاثة أسابيع ، وهو الجرف الذى تسلقه باركر وبراون فى يومين . وتبرز رحلة الـ ٤,٨ كيلومترات هذه — بواقع ١,٦ كيلومتر فى الأسبوع — كانتصار من الانتصارات

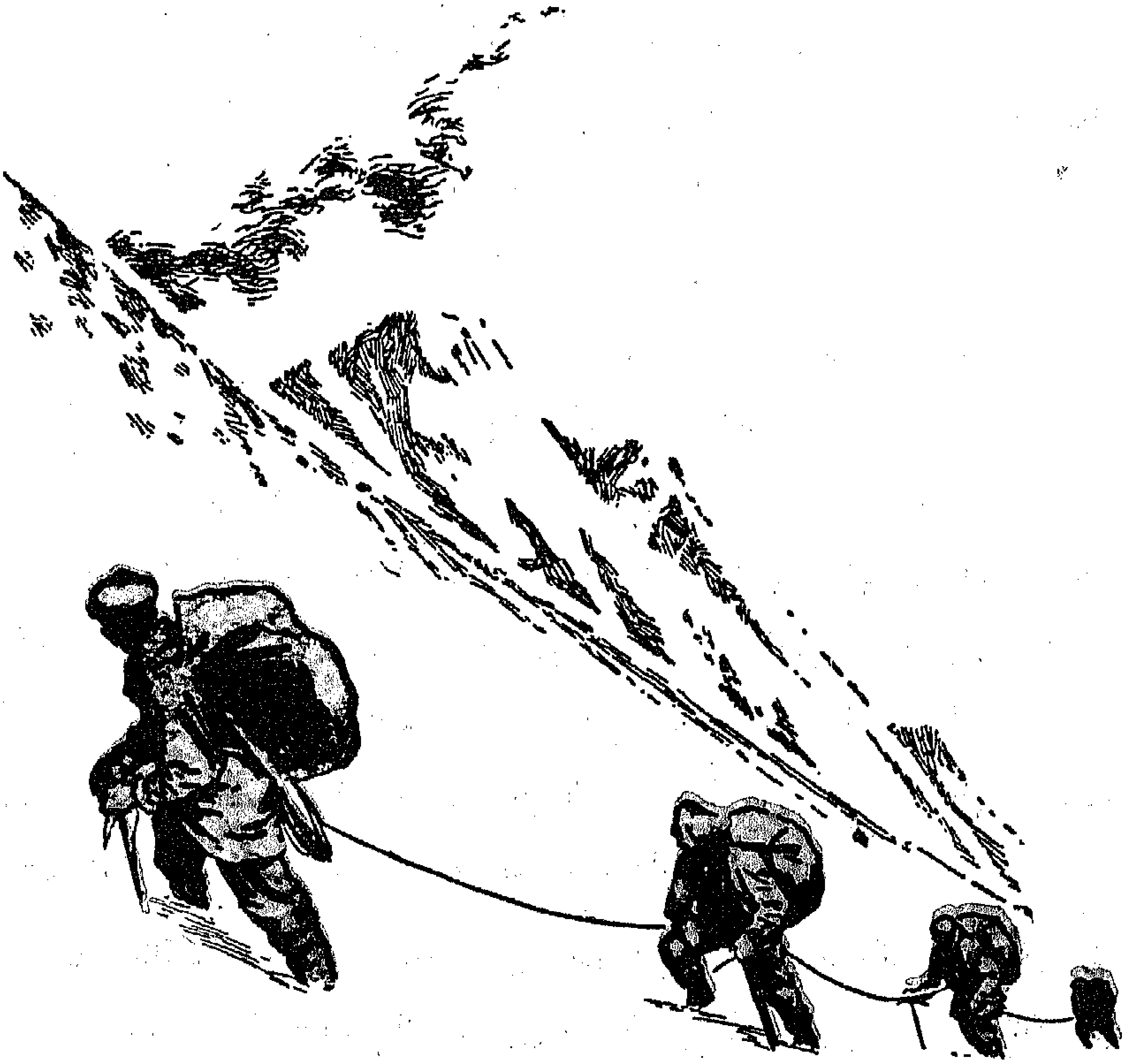

كان الدخان يتصاعد من موقع معسكرهم

المرموقة جداً فى تاريخ تسلق الجبال . فلقد فُتَّ فعلا فى عضد مقاومة ماكينلى.

إلا أن الجبل العظيم كان لا يزال محتفظاً ببضعة أسهم فى جعبته. فبعدأن استنفد كل الحيل الممكنة لتثبيط همم مهاجميه ، حاول بالحرارة هذه المرة . فلقد استقر الطقس بشمسه الساطعة سطوعاً متواصلا لا تشوبه عواصف ذات بال ، وسجل المحرار « الترمومتر » فى ٤ من يونية درجة حرارة ٥٠° وهى حرارة خطيرة على الجليد العاكس لأشعة الشمس ، وحمل الأثقال على الجليد فى هذه الحرارة من الأعمال المفجعة القاصمة للظهر .

لكن الحرارة والوهج وأحياناً البرد — إذ أن درجة الحرارة كانت تنزل أحياناً إلى ١٠° أو ٢٠° تحت الصفر — لم تمنع المتسلقين من الاستمرار فى المضى إلى هدفهم . لقد كان الطقس صافياً بدرجة غير معتادة ، وكان لدى الفريق طعام وفير . فعبروا الحوض العظيم بسهولة نسبياً وأقاموا معسكرهم عند قاعدة الجرف النهائى ، وكان أمامهم تسلق يوم واحد ، فى حين كان ما لديهم من الطعام والمؤونة يكفيهم ثلاثة أسابيع . وكان الدكتور ستاك ، أكبر الأربعة سناً وأعجزهم لا يقدر على التسلق أكثر من دقيقة أو دقيقتين دون أن يستريح وقتاً أطول من ذلك بكثير .

وهكذا مضوا فى طريقهم ، يحابيهم الطقس الذى كان صافياً ، ولو أنه انقلب قارس البرودة ثانية . لقد كان صافياً جداً لدرجة أنه أمكنهم أن يروا صارياً خشبياً فوق أعلى نقطة للقمة الشمالية ! وعلى ذلك فالإشاعة التى سمعوها كانت صحيحة . لقد وصل المنقبون الآلاسكيون من فيربانكس إلى القمة على أى حال .

فلقد ظهر فيما بعد أن المنقبين صعدوا من الثلاجة فى يوم واحد دون الاستعانة بالأحبال أو فؤوس الجليد ، وكانوا يحملون معهم صارياً طوله ٤,٢ كيلومترات ، أمكنهم أن يغرسوه فى أعلى نقطة للقمة الشمالية ، تلك القمة التى ظن بلمور وبراون أنه لا يمكن لأى إنسان أن يتسلقها . حقيقة أنهم وصلوا إلى نقطة تبعد

٢٤٠ متراً أو ٣٠٠ متر من قمة أعلى جبل فى أمريكا الشمالية ، إلا أنه لم يسبق هذه الرحلة رحلات تسلق كثيرة مثلها فى تاريخ البشرية أجمع . ولا يدرى أحد السبب فى اختيارهم القمة الشمالية . ربما دخل فى روعهم أنهم صعدوا إلى القمة الحقيقية للجبل ، وربما أنهم اختاروا القمة الشمالية عن قصد ، لأنها يمكن رؤيتها من موطنهم فيربانكس فى الطقس الصافى ، فى حين لا يمكن رؤية القمة الجنوبية العليا من ذلك المكان .

شعر الدكتور ستاك ورفاقه بالخلاص عند ما تبينوا أنهم غير مضطرين لتسلق القمة الشمالية لإثبات ما إذا كان أى شخص قد وصل إليها أم لا ؛ فمضوا فى طريقهم خطوة خطوة حتى وصلوا إلى آخر درجة فى الجبل العظيم . ولقد مرّت بهم لحظات شعر فيها الدكتور ستاك أنه غير قادر على الاستمرار لكنه لم يستسلم على الإطلاق .

واتضح لهم أمر من الأمور ، فعلى الرغم من أن بعثة براون وباركر قد وصلت فى العام الأسبق إلى ارتفاع يزيد على ٦٠٠ متر على التاج الحقيقى للجبل ، إلا أنهم كانوا بعيدين عن القمة الحقيقية بمسافة أكبر مما ظنوه بكثير .

وبدا لهم الميل الأخير ، الذى لم يقع بصرهم فى أثناء قطعه ، إلا على الجليد ، طويلا لا نهاية له . غير أنهم وصلوا إلى تلك النهاية ولم يعد يقال إن « العظيم » لم يتسلقه أحد ، ولو أن ذلك لم ينقص من عظمته شيئاً . لقد وصلت بعثة ستاك إلى القمة الحقيقية لجبل ما كينلى .

واستلقى المتسلقون المنهكون على الجليد بعد أن أدوا صلاة قصيرة للشكر ، ثم أخذوا بعض الأرصاد لدرجة الحرارة وقراءات البارومتر ، وحددوا الموقع باستخدام بوصلة منشورية ، والتقطوا من الصور العدد الذى سمحت لهم به أصابعهم المتجمدة ، ولم يهبوا للاستمتاع بالمنظر والإعجاب به إلا بعد أن أتموا كل هذه الأعمال .

ذهبوا للاستمتاع بالمنظر

ولقد وصف الدكتور ستاك شعوره بالرهبة فى ذلك المكان العالى بعد أن صعد إليه بما يلى :

« إن أولئك الذين صبوا إلى أمنية عظيمة تكاد تكون متطرفة ، وتحققت لهم تلك الأمنية طبقـًا لما كانوا ينتظرونه تمامـًا ، هم فقط ، الذين يمكنهم التغلغل إلى الشكر العميق ، والرضا الذى ملأ القلب عند الهبوط من فوق الجبل .

ولم يكن ثمة فخر بالقهر أو أى أثر لذلك الابتهاج بالنصر الذى يعم البعض عندما يصعدون إلى قمة عالية لأول مرة ، أو انتباه إلى الحظ السعيد الذى رفعنا بضع مئات من الأمتار أعلى من أولئك الآخرين الذين صارعوا وهزموا . إنما انتابنا شعور بأننا منحنا شرف التعامل مع الأماكن العالية على الأرض ، فلم يسمح لنا فقط برفع أعيننا المتشوقة إلى تلك القمم التى بقيت فى غموض وانعزال منذ بداية العالم ، بل سمح لنا أيضـًا أن نقدم لها أنفسنا فى جرأة ونسود عليها فى قاعات عرشها التى كانت مغلقة حتى ذلك الوقت ، ونسكنها وننظر من فوقها إلى ما تحتنا لنرى جميع الأشياء وهى منتشرة من خلال نوافذ السماء ذاتها » .

وكان المتسلقون قد أخبروا چونى فريد عندما تركوه مع الكلاب فوق الثلاجة أنهم عائدون فى ظرف أسبوعين ، لكن مضت أربعة أسابيع ، وعندما وصلوا إلى المعسكر الأساسى كانوا قد تغيبوا ٣١ يومـًا .

ولقد كان چونى الذى ناهز الخامسة عشرة أمينـًا على وديعته ، فاعتنى بالكلاب عناية طيبة ، وكذلك بالمعسكر فجعله جديداً . ولقد جلب هذا الصبى الهندى الذى كانت مدرسته الوحيدة هى القفار الموحشة ومدرسة الإرسالية ، النبل والشرف للجبل الذى لطخ اسمه إلى حد ما الدكتور كوك سليل الجامعات .

فقد كان چونى مع المتسلقين الأربعة فوق الثلاجة عندما اكتشفوا أن النار تضطرم فى خيمتهم وأن مؤنهم قد فنيت ، وكان يعلم أنه لن يكون لديهم سكر أو لبن بعد انتهائهم من محنتهم فوق الجبل ، فترك نصيبه من السكر واللبن

الذى ترك له فى المعسكر ولم يمسسه طوال الأيام الواحد والثلاثين التى قضاها وحيداً ، وظل السكر واللبن ينتظران المستكشفين المنهكين المتعبين إلى أن وصلوا إلى قاعدتهم .

وإنه لمن الصعب أن نصدق أن سعادة الدكتور كوك فى ادعائه الكاذب بلقب قاهر جبل ماكينلى كانت فى عظمة سعادة چونى فريد عندما تنازل عن شىء من حقه لصالح الآخرين .

سر فرعون المفقود

اكتشاف قبر توت عنخ آمون :

لقد صرفنا الكثير من الوقت والتفكير والعمل فى بناء مجتمعاتنا ببيوتها المقدسة وسككها الحديدية ومطاراتها ومسارحها ومكتباتها ومصانعها وموانيها . وتبدو كل هذه المنشآت عتيدة صامدة ، حتّى إننا لنشعر أنها سوف تبقى إلى الأبد . ومن المستحيل علينا أن نفكر فى أن تلك الأعلام قد يأتى عليها يوم تكون فيه مدفونة تحت الأرض ، وأن رجال المستقبل قد يبنون عالمًا مختلفًا فوق بقايا عالمنا .

ومن المحتمل جدًّا أن يكون هذا الشعور ذاته قد ساور الشباب الذى عاش فى وادى نهر النيل فى مصر القديمة منذ أكثر من ٣٠٠٠ عام مضت . فمن المحتمل أنهم كانوا يعتقدون أنه لا يمكن إطلاقًا أن يخبو مجد ملوكهم ويُنسى ، كما أنه لا يمكن أبدًا أن تدفن معابدهم وقصورهم وتفقد فى الرمال .

كان المصريون القدماء شعبًا نبيلا معتدًّا بنفسه ،وكان من بينهم مهندسون

معماريون وميكانيكيون وفنانون عظماء . وعاش ملوكهم فى أبهة من الذهب والجواهر لا نجد لها مثيلا فى عالمنا الحاضر . وانقرض هذا الشعب القديم ، وتلاشى من بقى منه فى جنس أجنبى من الغزاة . وبقى فقط أعظم آثاره وأقواها بناء ، أغلبها أطلال ، بقيت للمؤرخين ليحلوا طلاسمها ، وللسياح لتثير العجب فيهم .

لم يقنع رجل العصور الحديثة بمجرد النظر إلى الأهرام العظيمة القائمة بالقرب من القاهرة ، والتى لم يمكن للرمال التى ظلت تهبّ عليها آلاف السنين أن تبليها أو تغمرها ،وأن يقول فى بساطة : «حسنًا حسنًا ! إنى لأتساءل عن الغرض الذى من أجله أقيمت هذه الأشياء العظيمة ؟ ومن تظن ذلك الذى يقيم بناء مثل هذا هنا فى الصحراء ؟أظن أننا سوف لا نعرف ذلك على الإطلاق!» .

لقد جمعت قصة هذا الجنس القديم والعظيم تدريجيًّا على مرّ السنين ؛ فوجدت بعض أجزائها فى السجلات القديمة ، وفى ترجمة النقوش المحفورة على الأحجار والمبانى المهدمة ، وحتى على قطع الورق المصنوعة من النباتات المائية، ففى تلك الوثائق كتب المصريون أنفسهم عن عادات وتقاليد شعبهم وملوكهم .

وبدأ الناس ، بمرّ السنين ، يدركون أن دراسة حياة الشعوب القديمة وتواريخها ربما تساعدنا فى المحافظة على مدنيتنا من الاندثار، كما حدث لجميع الحضارات الأخرى ، فبدأت دراسة أكثر عمقًا ، إلا أن الطريق إلى العصور التى ولت طريق مظلم وعر . فلنستمع إلى قصة مغامرة مثيرة لأحد الرجال فى سرّ مصر .

كان جورج هربرت الخامس إيرل لكارنارڤون ، مغرماً بالبحث عن الآثار القديمة ، وكان دائمًا ولوعًا بعلم الآثار . وبحلول عام ١٩٠٦ كان قد استقر به المقام فى مصر حيث يمكنه تحقيق رغبته . وعلى بعد ٨٠٠ كيلومتر تقريبًا من القاهرة إلى أعلى نهر النيل العظيم تربض بقايا إحدى المدن القديمة العظيمة نصف مدفونة فى واد جبلى من الصخور الحمراء والرمال الذهبية ، تسطع عليها أشعة الشمس

المحرقة . تلك هى « مدينة طيبة » عاصمة مصر فى عصرها الذهبى . ولقد أزيلت الرمال والأوساخ عن معابد الكرنك والأقصر العظيمة ، تلك المدينة القائمة على أنقاض طيبة القديمة ، أزيلت الرمال من عليها منذ زمن بعيد ليقف أمامها العالم مأخوذاً مذهولا . إلا أن مدافن طيبة القديمة كانت حتى مستهل القرن العشرين تطوى أسراراً لم يكشف عنها الستار .

ولقد تراكمت المعرفة تدريجياً خلال الأعوام المائة والخمسين الماضية حتى أصبح معروفاً أن أهم مدافن طيبة يقع غرب النيل على بعد مسافة من مدينة الأقصر ، كما أنه أصبح معروفاً أيضاً أنه عند موت أحد ملوك مصر ، أو فراعنتها ، كانت ممتلكاته جميعها تدفن معه .

ولقد كان بعض المستكشفين للمنطقة التى تحيط بطيبة ، سعداء الحظ بتحديدهم للمدافن القديمة . فتم تحديد ٢٨ مقبرة من مقابر الفراعنة الواقعة فى وادى الملوك ، والتى يبلغ عددها ٣٠ مقبرة أو تزيد ، كما تم الكشف عنها ، ووجد فيها موميات وتوابيت حجرية عظيمة وأوان فخارية وغير ذلك من الأشياء ، ووجد أن لصوصاً كانوا قد اقتحموا جميع القبور الملكية بدون استثناء ، وجردوها من أغلب الكنوز القيمة .

وكان اللورد كارنارڤون ومساعده العالم الأثرى هوارد كارتر يعلمان أن قبر الملك الذى كان يعيش منذ ٣٣٠٠ سنة تقريباً لم يكشف بعد . وعقد كارنارڤون العزم على التركيز على محاولة العثور على فرعون المفقود . وكان هناك أمل ضعيف فى أن اللصوص لم يصلوا إلى قبره ، حيث إن علماء الآثار المستكشفين لم يتمكنوا من العثور عليه .

كان هذا الملك شخصية غامضة لم يذكر لنا التاريخ عنه إلا القليل ، وحتى اسمه ، الذى نعرف الآن أنه كان توت عنخ آمون ، لم يكن مؤكداً تماماً عندما بدأ اللورد كارنارڤون وهوارد كارتر البحث عنه . وكان معروفاً أنه مات شاباً ، وكان المعتقد أنه لم ينحدر من سلالة ملكية ، إنما أصبح ملكاً بزواجه من صغرى

هوارد كارتر لورد كارنارفون

كريمات الفرعون العظيم آخ إن آتن ، ولكن أين دفن توت عنخ آمون ؟

كان هوارد كارتر قد عمل من قبل مع عالم أثرى أمريكى منحته الحكومة المصرية حق الحفر فى وادى الملوك . ووجد فى أثناء سيره فى العمل وقتئذ بضعة أشياء عليها اسم توت عنخ آمون ، كان بعضها فى قبر صغير فى مكان مهمل من الوادى . وادعى مستر ثيودور داڤيز الأمريكى أنه وجد قبر توت عنخ آمون ، لكن بدون ملك داخله ، وأنه قد نهب مثل القبور الأخرى .

وكان هوارد كارتر أوفر علماً ، فلقد كان واثقاً من أن القبر الذى وجده المستر داڤيز لم يكن قبراً ملكياً ؛ إذ لا يمكن أن يدفن أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة فى قبر وضيع مثل ذلك ، وأوحى اكتشاف بعض الأوانى الفخارية

المحتوية على المواد التى استخدمت فى أثناء جنازة توت عنخ آمون إلى كارتر بأن القبر الحقيقى لهذا الملك لا يمكن أن يكون بعيداً عن تلك المنطقة .

لنلق بنظرة على وادى الملوك لنرى مقدار العمل المثبط الذى أخذه كارتر على عاتقه . فإذا وقفت عند مدخل الوادى ترى أمامك حائطاً صخرياً كبيراً ترتفع فوقه قمة تعرف « بالقرن » ، وينحدر من سفح الحاجز الصخرى إلى قاع الوادى قطع الأطلال المتناثرة ، والصخور ، والتراب . ونجد فى بعض المنحدرات فتحات بنيت بالأحجار ، هى التى عثر عندها على القبور ونقب عنها ، وألقيت الأتربة التى نتجت عن الحفر فى قاع الوادى .

ولقد أدرك هوارد كارتر أن إزالة الأطلال والوصول إلى القاع الصخرى الذى يجب أن يكون قد بنى فيه القبر ، هذا إذا كان له وجود فى هذه المنطقة على الإطلاق ، أدرك أن ذلك يتطلب من الوقت السنين ومن الرجال المئات . ترى هل كان هناك دليل يرجح احتمال وجوده فى بقعة عن الأخرى ، نعم لقد ظهر هذا الدليل لعين كارتر المدربة الخبيرة .

فلقد كشف الحفر طوال الموسم عن مجموعة من الأكواخ البدائية تحت المدخل المؤدى لقبر رمسيس السادس الذى اكتشف من زمن بعيد . وفى مثل تلك الأكواخ كان العمال القدماء الذى بنوا القبور فى الوادى يعيشون من آلاف السنين . ولقد أقيمت تلك الأكواخ على كومة كبيرة من صخور الصوان .

وكان كارتر يعرف من خبرته أن وجود تلك الصخور يعنى فى الغالب وجود قبر غير بعيد . ولسوء الحظ كان الحفر فى المنقطة المجاورة لتلك الصخور يقطع الطريق إلى قبر رمسيس السادس ، ولقد كان لهذا القبر شهرته لدى زوار مصر . وعلى ذلك قرر كارتر الانتظار حتى ينتهى موسم السياحة ، وتأجل العمل فى الموقع حتى شهر أكتوبر عام ١٩٢٢ .

وبحلول اليوم الثالث من نوفمبر كان عدد من أكواخ العمان القدماء قد أزيل ، ولقد كانت جميعها متشابهة إلى حد كبير فاحتفظ بعدد كاف منها

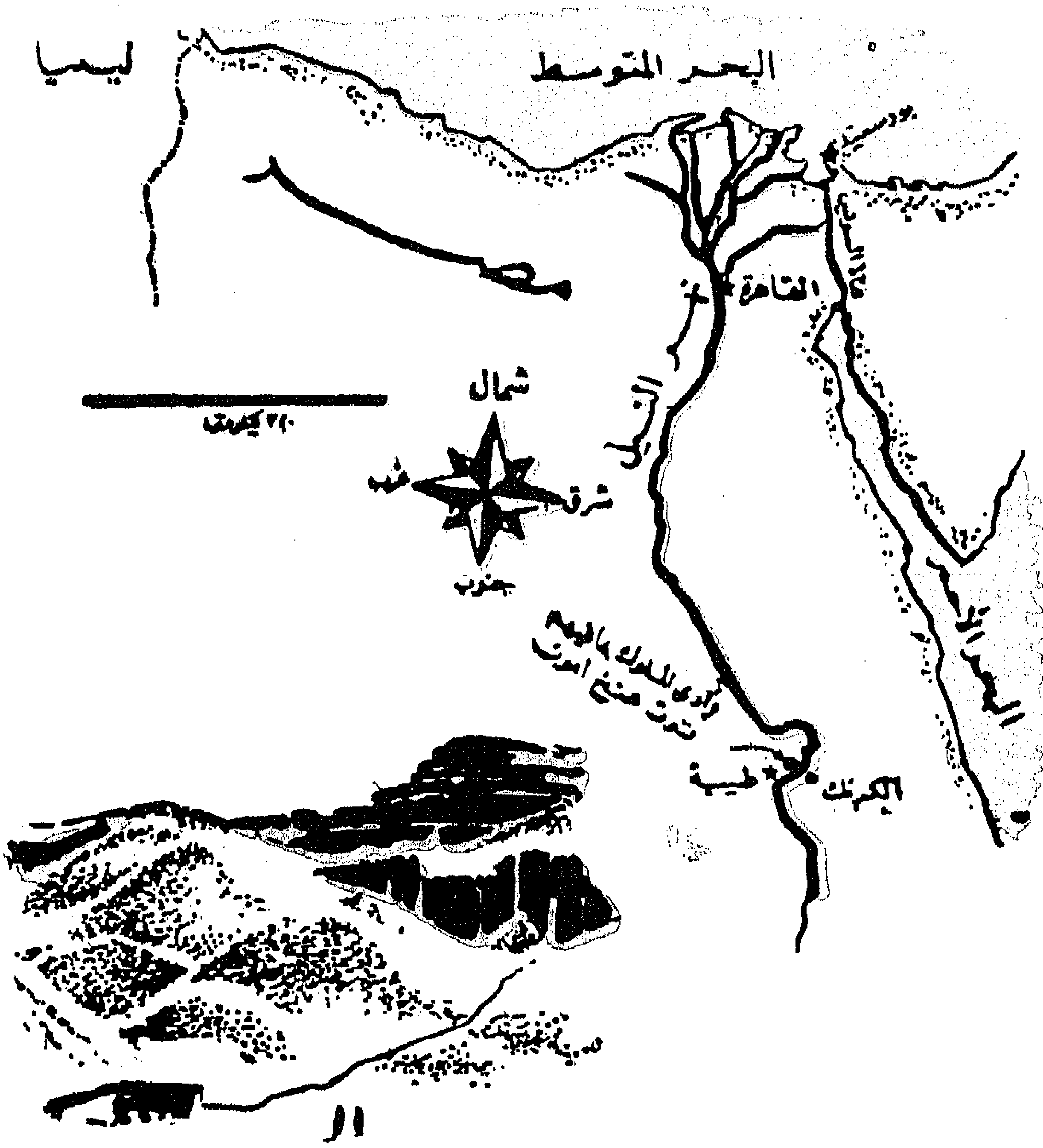
ليبيا
البحر المتوسط
مصر
القاهرة
نهر النيل
شمال
شرق
غرب
جنوب
طيبة
الكرنك
البحر الأحمر

للإبقاء على علاقتها التاريخية بقبر رمسيس . وكان تحت البقعة التى أقيمت عليها الأكواخ طبقة من التربة يبلغ سمكها ٩٠ سنتيمتراً يليها القاع الصخرى . وهنا بدأ العمل الشاق فى إزالة تلك التربة الجافة المتربة .

وعندما وصل هوارد كارتر إلى الموقع فى الرابع من نوفمبر جال ببصره فيما حوله يساوره شعور بالقلق ؛ لقد كان فى الأمر شيء ، فبدلا من صلصلة الفؤوس والجواريف ورنينها وجلبة العمال المعتادة ، كانت شمس مصر تسطع على سكون تام ، إن أمراً قد حدث ، ترى ماذا وقع ؟ أهو أمر طيب ؟ أم سيئ ؟ لقد اعتاد كارتر وقوع السيئ من الأمور ، وكان ما توقعه .

تفحص كارتر وجه رئيس العمال ، وهو على استعداد لتقبل أسوأ الأمور ، وكان قد تقدم للتحدث معه . ولكن بدا له ما سمعه طيباً جداً بحيث يستبعد أن يكون حقيقة ، فلقد علم ، أن العمال الذين كانوا يحفرون فى ذلك الصباح بالذات ، تحت موقع أول كوخ قديم كان عليهم هدمه ، صادفوا ما بدا لهم أنه درجة سلم نحتت فى القاع الصخرى للوادى . وهذا لا يمكن أن يكون حديث الصنع ، إذ أن الأكواخ التى كانوا قد أزالوها من فورهم ، من الطبقة التى كانت تعلو ذلك الكوخ ظلت قائمة فى مكانها منذ وفاة رمسيس السادس ، أى منذ أكثر من ٣٠٠٠ عام . فعلل كارتر نفسه بأمنية عثوره أخيراً على شيء ما بعد كل تلك السنين من البحث .

وعمل رجاله يومين فى إظهار تلك البقعة متتبعين حدود الدرجة حتى ظهرت فى كومة الصخور الجوانب الأربعة لشيء كان واضحاً أنه طريق مدرج ، ولا يمكن أن يكون هناك أدنى شك فى أن ما كشف عنه هو مدخل قبر ! نعم ولكن كم من مرة تصبب الحفارون المتحمسون عرقاً فى الكشف عن القبور ، ليجدوا أنها لم تكمل أو لم تستعمل على الإطلاق !

واستمر العمل فى الحفر حتى تم الكشف عن ١٦ درجة هابطة فى ممر يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار واتساعه ١٨٠ سنتيمتراً ، وحبس هوارد كارتر أنفاسه وهو

وبدت درجات سلم منحوت فى القاع الصخرى للوادى

يراقب عملية فتح الممر ، أما ما قاله عندما رأى الجزء العلوى من المدخل محكم الإغلاق بالمصيص والحجر ، فلم يسجل . لقد وجد أخيراً بعد سنين من خيبة الأمل قبراً حقيقياً . نعم وجد قبراً ، لكن لمن ؟ لقد كان هناك سبيل واحد لمعرفة ذلك .

عندما كانت تغلق معظم قبور طيبة ، كانت تختم بخاتمين ، ولقد كان أحد الخاتمين الموجودين ، على جميع القبور فى المدافن الملكية دليلا على وجود شخص هام جداً ، أما الخاتم الآخر فكان الخاتم الشخصى لفرعون المدفون داخل القبر . وبحث كارتر عن اسم ملكى فى الأبواب التى كشف عنها ، فوجد النوع الأول من الأختام فقط .

على أنه رأى فى أثناء فحصه للجبس القديم فى قمة الباب حيث سقط

بعض الملاط ، قطعة من الخشب الثقيل . والظاهر أنها كانت العتبة العليا للباب ، وهنا سنحت له الفرصة لرؤية ما يوجد خلف ذلك الباب .

كان قلب كارتر يدق بعنف فى أثناء ما كان يثقب ثقباً فى الملاط أسفل العتبة الخشبية حيث يمكنه توجيه حزمة ضوئية من مصباحه اليدوى . وتجرأ كارتر بعد عناء على متابعة الضوء بعينيه لكنه لم ير شيئاً فى الداخل ، نعم لا شىء سوى الحجارة والزلط . إلا أن هذا اللاشىء بالذات قد يعنى كل شىء ! فربما كان يعنى أنه قد بذلت العناية القصوى فى جعل دخول القبر أمراً صعباً . فلو لم يكن هناك شىء مخبأ خلف الباب ما تكبد أحد مشقة ملء الممر من الأرضية إلى السقف بالأحجار ثم إغلاق الباب الذى يؤدى إليه .

حينئذ عرف كارتر أنه يحتمل أن يكون قد قام بأهم اكتشاف عمل فى مصر ، فكان واضحاً أن ذلك القبر كان قبراً هاماً ، وأنه لم يتعرض لهجوم اللصوص لمدة ٣٠٠٠ عام على الأقل . لكن ماذا عن القبر ذاته ؟ لقد كان فتحة صغيرة حقيرة ، بالمقارنة بقبور الفراعنة التى اكتشفت فعلافى الوادى . ربما لم يكن قبراً ملكياً على الإطلاق ، بل قبر نبيل من النبلاء دفن فى الوادى بموافقة الملك . عاد كارتر إلى الباب ثانية وبحث مرة أخرى عن الأختام المحققة له ، وشمل بحثه كل بقعة حتى أسفل مكان وصل إليه الحفر لكنه لم يجد شيئاً .

ماذا كان عليه أن يفعل ؟ لقد بدأ الظلام يخيم على المكان ، ولم يكن من الممكن الانتهاء من تنظيف ما حول الباب فى تلك الليلة . كما لم يكن فى إمكانه ترك ما أخرجه من الظلمات إلى النور مكشوفاً ، فعمل على سد الثقب الذى ثقبه تحت العتبة العليا للباب وهو متأفف ، وكان لا يوجد حوله أحد غير العمال الوطنيين ، ثم أصدر أوامره بإرجاع كل شىء إلى مكانه .

وذهب كارتر إلى منزله فى ضوء القمر الخافت المخيف ليأخذ قسطه من الراحة والنوم بعد أن اختار أكثر رجاله أمانة ليحرسوا الموقع فى أثناء الليل . ولم يكن ذلك بالعمل الهين ، فقد كان لديه الكثير من الأمور التى تستدعى

التفكير فيها ؛ إذ لم يكن فى إمكانه عمل شيء أكثر مما فعله حتى يصل اللورد كارنارڤون من إنجلترا ، وعلى كل حال ، فكارنارڤون كان المتكفل بالبعثة ، وكان من حقه حضور فتح القبر .

ظل كارتر قلقاً طوال ليلته يتقلب فى فراشه ثم يقطع أرض حجرته ذهاباً وجيئة ، فكان يدرك أنه يجب عليه الانتظار ، وفى الصباح أبرق برسالة إلى كارنارڤون وعاد إلى الوادى حيث انقطع لعمل شاق ومضن ، وهو ردم موقع الحفر الجديد والمنبر وتسوية أرضه كلها ، حتى إنه بحلول مساء السادس من نوفمبر كان من المستحيل على أى زائر ملاحظة أن المكان قد حفر من قبل على الإطلاق ، إلا أن الأخبار كانت قد انتشرت ، فبدأ كارتر يتلقى برقيات التهانى وخطابات تثير الشك حول قيمة استكشافه وعروضاً للمساعدة من جميع أنحاء العالم

وفى الفترة التى انقضت قبل أن يتمكن لورد كارنارڤون من الوصول إلى مصر وكانت قد زادت على أسبوعين ، عين كارتر مجموعة من المساعدين المهرة للمعاونة فى الكشف عن القبر . أما عن القبر ذاته فقد بقى كما كان منذ ٣٠ قرناً حافظاً لسره الذى كان لا يزال خافياً ، كمجموعة ورق اللعب المقلوبة التى يحتمل أن تكون الورقة المسحوبة منها « آس » أو « چوكر » ، كما كان كارتر يعلم تمام العلم .

وفى الثالث والعشرين من نوفمبر بدأت عملية إعادة فتح مدخل القبر ثانية ، إذ أن اللورد كارنارڤون كان قد وصل إلى الأقصر هو وابنته الليدى إڤلين هربرت عبر النيل من وادى الملوك . وبحلول عصر ذلك اليوم كان المدخل قد كشف عنه مرة أخرى ، ولكن الحفر وصل حتى القاع فى هذه المرة . وأجرى البحث مرة أخرى عن الأختام ، لكنهم تمكنوا فى هذه المرة من معرفة اسم توت عنخ آمون فى أماكن عديدة . وللمرة الأولى سمح كارتر لنفسه بالتعلل بأنه وجد ضالته .

ومهما يكن من شيء فقد ظلت بعض الاحتمالات غير السارة باقية .

فأولا : بدراسة الباب المحكم الإغلاق تبين لهم أن فتحة تسمح بمرور جسم رجل كانت قد عملت فى تاريخ سابق قد يكون فى حدود ١٠٠ عام من تاريخ الدفن ، ثم أحكم إغلاقها ثانية . إلا أن كونها أحكمت الإغلاق والختم ، هذه الحقيقة بالذات ، تعنى أن بعض الأصناف القيمة كانت لا تزال باقية داخل القبر .

كما كانت هناك حقيقة أخرى محيرة وغير مشجعة ، فلقد كان ضمن القمامة التى وجدت على طريق السلم الذى يؤدى إلى الباب بعض أجزاء من أوان فخارية ، وصناديق ، وأشياء أخرى عليها أسماء نصف « دستة » من الملوك ، وظن كارتر أنه من المحتمل أن هذا يعنى أن ما عثر عليه كان مخزناً أكثر منه قبراً ، مخزناً حفظت فيه ممتلكات فراعنة عديدة ، وربما كان ذلك فى عهد توت عنخ آمون ، وإذا كان ذلك صحيحاً ، فمن غير المحتمل بالطبع وجود جثمان توت عنخ آمون خلف الباب المحكم الإغلاق .

وبحلول الخامس والعشرين من نوفمبر كانت آمال « كارتر » قد ذهبت مع الريح ؛ ففى صباح ذلك اليوم صورت الأختام وأزيح الباب المغلق أخيراً ، وعندئذ تمكن الحفارون من رؤية ممر هابط بدون درجات ، وكان الممر — كما لاحظ كارتر من خلال الثقب — مملوءاً بالأحجار والزلط من الأرضية إلى السقف .

وشاهد أعضاء البعثة شيئاً آخر ، لقد كانت هناك علامات تدل على أن كارتر لم يكن أول من نفذ فى ظلمة القبر الغامض الذى يقع فى نهاية الممر . فلقد حفر أحد الأشخاص ، فى قديم الزمان حفرة فى الأطلال الكائنة تحت السقف فى الجانب الأيسر العلوى للممر . وفى أثناء خروجه ثانية ملأ الحفرة وحاول — بدون أن ينجح — فى جعلها تظهر كما لو لم يطرقها أحد . هكذا كان الأمر ، قبله كارتر أو رفضه . لقد نهبت البقعة كما حدث للأخريات ، ماذا ، إذن ، يمكن أن يتوقع ؟

راقب كارتر عملية إخلال الممر فى أثناء مساعدته لعماله طوال ذلك اليوم

إلى منتصف عصر اليوم التالى . لقد كان العمل يسير ببطء ، إذ كان عليه أن يفحص محتويات كل سلة أو عربة تخرج من الممر عساه أن يعثر على ما ينم على شيء . وفى النهاية ظهرت حدود باب آخر يماثل تماماً الباب الخارجى . ومرة أخرى سرت فى كارتر رجفة الإثارة . فربما يكشف الباب عند فتحه – لأول مرة فى التاريخ الحديث – عن تفاصيل أبهر فترة فى عظمة مصر وأقلها فى المعلومات المعروفة عنها .

كان من الصعب على هوارد كارتر أن يصدق بعد مالاقاه من خيبة الأمل مراراً كثيرة ، أنه ربما يكون حقيقة واقفاً أمام الباب المؤدى إلى عالم آخر . وخيل إليه أن العمال كانوا بطيئين بطئاً غير معتاد فى التنظيف حول الباب الثانى . وعندما خلص الباب بأكمله ، فى النهاية ، ورآه أمامه لا يعوقه عائق ، بدت له الخطوة التالية أعظم من أن يقوم بها . فربما تمخضت كل هذه التحضيرات عن لا شيء ! وتوجه بنظره نحو لورد كارنارڤون الذى لم يعتر تعابير وجهه أى تغيير .

وتقدم كارتر من الباب ، وثقب ثقباً صغيراً فى الركن الأيسر العلوى للباب ، مستخدماً مطرقة وإزميلاً أمسكهما بيدين مرتعشتين . وسمع صدى صلصلة الطرقات فى الغرفة المنحوتة تحت الأرض ، تلك الغرفة التى لم يسمع فيها صوت منذ ٣٠٠٠ عام .

وعند ما نفذ الثقب إلى نهاية الجدار رفع كارتر قضيباً طويلا من الحديد، ودفعه ببطء إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه فى الظلام فلم يلمس شيئاً ، وهذا يعنى أن الغرفة الواقعة خلف الباب ، على الأقل ، لم تملأ بالأتربة والحجارة كما ملئت الممرات المؤدية لها . وعندما أمسك بشمعة مضاءة فى التيار ارتعش لهب الشمعة وتراقص لكنه لم ينطفئ ، مما يدل على أن الهواء الكائن فى الغرفة المغلقة كان صالحاً للتنفس على الأقل .

ووسع كارتر الثقب حتى أمكنه إدخال ذراعه فيه ، وكان لا يزال ممسكاً

بالشمعة ، لكنّ لهب الشمعة الذى ظل يتراقص ، لم يمكنه من الرؤية عندما حنى رأسه لينظر من خلال الثقب إلى جانب ذراعه . وعندما تعودت عيناه الضوء ، رأى – فى غير وضوح أول الأمر ، ثم أكثر وضوحاً بعد ذلك – ما لم يره إنسان فى العصور الحديثة مطلقاً . هل كان وميض الشمعة هو الذى جعل كل شىء يبدو ذهباً براقاً ؟ لا ! إنه كان ذهباً فعلا .

كان الذهب فى كل مكان ، وحوش عجيبة من الذهب ! وتماثيل وصناديق مذهبة ! وقطع أثاث ذات أشكال غريبة وجميلة تتألق بالذهب ويضفى عليها العاج والمرمر ظلا هادئاً !

انحبست الكلمات فى حلق كارتر ، ووقف لا حراك به لحظة من الزمن ، ووقف الآخرون وراءه فى الممر حابسين أنفاسهم ، وحملق كارتر ثم سمع اللورد كارنارڤون يهمس من ورائه ويقول : « هل يمكنك أن ترى شيئاً ؟ » .

وسحب كارتر يده من الثقب ومرّ بها أمام عينيه ، ولم يتمكن من النطق لحظة من الزمن ، ثم قال وهو يعلم تمام العلم أن كلماته كانت لا معنى لها تقريباً : « نعم أشياء عجيبة ! »

وعندما نحت ثقب الباب ليزداد اتساعاً حتى يمكن لشخصين النظر من خلاله وقف كارنارڤون وكارتر جنباً إلى جنب ، مأخوذين بشكل الكنز الذى عثرا عليه وجماله . ولندع كارتر يصف لنا المنظر بكلماته :

« أخذ المنظر يزداد وضوحاً بالتدريج وأمكننا معرفة أشياء فردية . ولكننا ترددنا فى تصديق أعيننا . فأولا ، كان أمامنا مباشرة – وقد كنا متنبهين لهذا طوال الوقت – ثلاث أرائك مذهبة نحتت جوانبها على أشكال حيوانات مريعة تضاءلت أجسامها بشكل عجيب لكى تفى بالغرض منها . ولكن رؤوسها كانت واقعية إلى حد مفزع ، إنها وحوش تبعث الفزع إذا ما نظر إليها فى أى وقت ، وبرؤيتها كما رأيناها ، بسطوحها المذهبة البراقة التى التقطناها من الظلام بمصباحنا الكهربى الصغير ؛ كما لو كانت تحت الأضواء الساطعة ورؤوسها رامية

ولم ينطفىء لهب الشمعة

ظلالاً ملتوية غريبة على الحائط القائم خلفها ، فإنها تكاد تكون مبعثًا للرعب . واسترعى انتباهنا بل استوقفه تمثالان يليانها إلى اليمين ، فلقد كانا تمثالين بالحجم الطبيعى للملك يلبس السواد ، مواجهين بعضهما بعضًا كأنهما حارسان ، وكانا مؤتزرين بالذهب ، ومنتعلين بنعال ذهبية ، ومسلحين بالرمح والدرع ، وعلى جبهتيهما الحية المقدسة الحامية .

تلك كانت هى الأشياء البارزة التى أخذت بأبصارنا فى بادئ الأمر ، أما بينها وحولها وفوقها فكانت هناك أشياء أخرى لا حصر لها — علب مجوهرات فائقة الحسن فى الطلاء والتطعيم ، وأوان من المرمر . وبعض التصميمات الجميلة للنقش المحفور ، وأضرحة سوداء غريبة يتلصص من الباب المفتوح لأحدها ثعبان مذهب . وباقات من الأزهار أو الأوراق ، وأسرّة وكراسى جميلة النقش المحفور

وعرش مطعم بالذهب وكومة من الصناديق البيضاء البيضاوية الشكل ، وعصى من جميع الأشكال والتصميمات ورأينا تحت أنظارنا على عتبة الغرفة بالذات كأساً جميلة من المرمر الشفاف على شكل زهرة اللوتس ، وإلى اليسار كانت كومة غير مرتبة من العجلات الحربية المقلوبة ، ومن ورائها كانت تطل صورة أخرى للملك تتلألأ بالذهب والمرصعات .

تلك بعض الأشياء التى كانت ملقاة أمامنا ، أما إذا كنا قد لاحظناها كلها فى ذلك الوقت فلا يمكننى الجزم بذلك ؛ إذ كانت عقولنا فى حالة من الإثارة والارتباك حالت دون التسجيل الدقيق . وفى هذه اللحظة خطر لعقولنا المشدوهة أنه لا يوجد تابوت أو أثر لموميا بين كل هذا الخليط من الأشياء التى أمامنا ، وبدأ السؤال الجدلى عما إذا كان ذلك قبراً أو مخبأ يحيرنا من جديد . فأعدنا فحص المنظر الذى أمامنا على ضوء هذا السؤال ، ولاحظنا لأول مرة ، أن هناك باباً آخر محكم الإغلاق بين تمثالى الحارسين الأسودين إلى اليمين . وجاءنا التفسير تدريجياً ، فما كنا إلا مبتدئين فى اكتشافنا ؛ إذ أن ما رأيناه كان مجرد مدخل ، وكان خلف الباب المحروس غرف أخرى ، بل ربما كانت متتابعة وليس هناك أدنى شك فى أننا لابد واجدون فرعوناً راقداً فى إحدى هذه الغرف .

لقد رأينا ما فيه الكفاية ، وبدأت عقولنا تدور عند التفكير فى العمل الذى ينتظرنا ، فأغلقنا الثقب ، وأوصدنا الدريئة الخشبية التى سبق وضعها فى المدخل الأول وتركنا موظفينا الوطنيين للحراسة ، ثم امتطينا حميرنا متجهين نحو المنزل . وكان الوادى مغلوباً على أمره يخيم عليه سكون غريب » .

انقضى اليوم التالى ٢٧ من نوفمبر فى تخليص الباب المؤدى إلى حجرة الكنز ، وفى فحص سريع للأشياء البديعة التى احتوتها . ولم يمس أى شىء منها أو يزاح إلا بعد أن تم تصويرها وترقيمها وقيدها بالكشوف . وبينت هذه الدراسة أن معظم الأصناف التى كانت موجودة فى هذه الغرفة كانت تحمل

ودهشوا للكنز الذى اكتشفوه

اسم توت عنخ آمون ، وهنا أضاف اللورد كارنارڤون وكارتر سبباً لتأكيد أن ما كشفنا عنه حقاً قبر فرعون المفقود .

إن علم الآثار قاس فى فرض واجباته ، وبالتزام قواعده بالدقة يحرم على المستكشف الركض من شيء إلى آخر جريًا وراء أكثر الأشياء استهواء له .

وكان كارتر يود أن يعالج الباب الأخير الغامض دون تأخير ، ولكنه كان يعلم أنه لا ينبغى له عمل ذلك ، فيجب عليه أولا أن يعتنى بالأشياء العجيبة المجموعة فى غرفة المدخل ؛ وفى الفتحة الصغيرة الملحقة بها . لقد خلط اللصوص من ٣٠٠٠ سنة مضت أشياء الملحق وأشاعوا فيها الفوضى بشكل مخيف ، لكن الظاهر أنهم لم يسرقوا شيئًا ذا قيمة . وتطلبت العناية اللائقة بتلك الأشياء التى لا تقدر بثمن إقامة معمل فى قبر خال قريب من الموقع . ودعت الحاجة بعد ذلك إلى خبراء للتحقيق من الأشياء الرقيقة الجميلة التى أخرجت إلى النور والهواء بعد بقائها آلاف السنين فى جفاف وظلمة القبر المميتة ، وحفظها وإصلاحها .

ولما كان كارتر عالمًا حقيقيًّا ، فقد كان له من الشجاعة والصبر ما يجعلانه يعمل ما يجب عليه عمله مؤجلا فرحته باكتشافه الجديد إلى الوقت المناسب .ولم تأت اللحظة العظيمة إلا فى فبراير . فى ذلك الوقت كانت غرفة المدخل والغرفة الملحقة بها قد أخليتا تمامًا ، وغربلت كل أوقية من تراب الأرضية خوفًا من أن يكون بها قطعة من المرصعات أو الجواهر أو قشور الذهب . ولم يترك إلا شيئان اثنان هما التمثالان الحارسان للملك على جانبى الباب الذى كان لا يزال مغلقًا .

وبعد ظهر يوم ١٦ من فبراير سنة ١٩٢٣ اجتمع نفر قليل من الشخصيات الهامة فوق مدخل القبر بدعوة من المستكشفين ، ونزلوا يعلوهم الوقار إلى غرفة المدخل التى أخليت ، وصفت فيها المقاعد . وكان قد بنى رصيف فى الطرف الشمالى للغرفة حتى يتمكن كارتر ومساعداه المستر ميس والمستر كالندر من الوصول إلى أعلى الباب المغلق . وفى الثانية والربع بعد الظهر رفع كارتر مطرقة وإزميلا بيد مرتعشة وفتح ما ظنه الجميع المنظر الختامى للغز فرعون المفقود .

وبعد عشر دقائق تم ثقب ثُقِب فى الجدار وأظهر الشعاع الضوئى للمصباح الكهربى الصغير شيئاً يشبه حائطاً من الذهب البراق على بعد لا يزيد على ٩٠ سنتيمتراً من الباب المسدود بالحجر . وساد جميع الحاضرين شعور مثير عندما كانت تفك الأحجار الواحد تلو الآخر وتنتقل من يد إلى أخرى حتى ينتهى بها المطاف إلى خارج الغرفة . فتهاوت الأحجار التى كانت تسد الباب ، وهبط السد تدريجياً . وبدا الحائط الذهبى البراق الذى كان منتصباً من أرضية الغرفة الداخلية المنخفضة عن عتبة الباب بحوالى متر ونصف متر فى ظهوره كأنه يرتفع تدريجياً بهبوط السد .

ولم يعد ثمة أى تساؤل ، فلقد كان ذلك ، بالتأكيد، الضريح الذى دفن فيه رفات الحاكم الصغير المفقود لتلك المملكة القديمة . أما ما كان لا يزال غير مؤكد ، فهو ما إذا كان فرعون نفسه لا يزال راقداً فيه ؛ إذ أن اللصوص كانوا قد زاروا هذا المكان ولو أنهم انصرفوا مسرعين على ما يظهر .

ووجد كارتر على عتبة الباب حبات عقد مبعثرة كانت قد سقطت من اللصوص فى أثناء انصرافهم السريع . وكان من الضرورى توقف العمل لالتقاط تلك الحبات المبعثرة ، فزاد ذلك من إثارة النظارة العشرين الذى كانوا يتململون فى مقاعدهم أمام ما يحتمل أن يكون أغنى اكتشاف اكتشف قبل ذلك فى مصر .

وكانت الساعة قد أعلنت الخامسة عندما تمت إزالة كل شىء من إطار الباب ، فهبط كارتر إلى الغرفة التى أقيم فيها الضريح ، وتبعه اللورد كارنارفون والمستر لكاو مدير مصلحة الآثار المصرية ، وسرعان ما اكتشفوا أن أبواب الضريح كانت موصدة بدون أختام . وكان لا يزال من الصعب التكهن بالأضرار التى أحدثها اللصوص القدماء . وسحب الرجال الحابسون أنفاسهم والذين جعلهم وقارهم المتواضع أرفع من أن يعدوا فى زمرة لصوص المقابر القدماء ، سحب هؤلاء الرجال المزاليج وفتحوا الأبواب التى انفتحت بسهولة ، على الرغم من ثقلها ، كما لو كانت قد أغلقت فى اليوم السابق فقط .

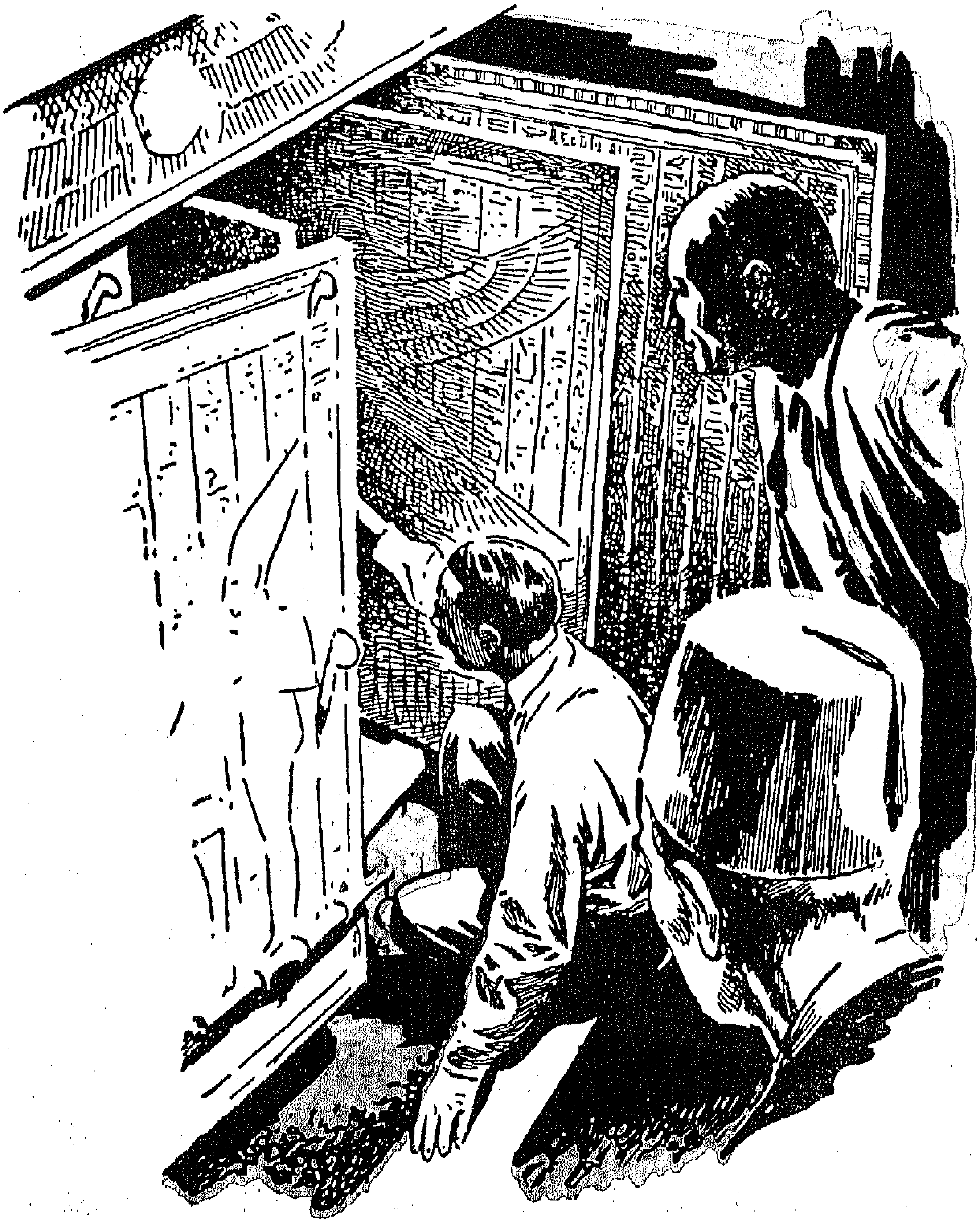

لقد تحقق حلمهم !

وأخيراً أصبح الأمريقينا ، وتحققت أحلامهم ، فى داخل المجموعة الأولى من الأبواب كان هناك ضريح آخر أوصدت أبوابه هو الآخر ، ولكنها كانت تحمل أختاماً غير مكسورة مما أثبتت بدون شك ، أن الضريح الداخلى لم تطأه قدم منذ أن سجّى فيه الملك .

وتبادل الرجال الثلاثة النظرات دون أن ينبسوا ببنت شفة ؛ فلقد كانوا يعلمون أن وراء الأبواب الذهبية يرقد جثمان شاب ؛ أمسك فى زمن من الأزمان بمقاليد أمور الإمبراطورية المصرية العظيمة .

لقد دفن رعايا توت عنخ آمون جثمانه فى هذا المكان يحدوهم الأمل أن تجعل التعاويذ المقدسة التى أودعوها فى قبره رحلته إلى العالم الآخر رحلة آمنة غير مزعجة . ودفنوا معه ، لهذه الرحلة أحب متعلقاته إليه بصرف النظر عن قيمتها . فوجد فى الغرفة الخارجية بياضات فرعون ، ونعاله ، وجواهره ، وقفازاته وعصيه وأقواسه ، وأسهمه ، وأرائكه ، وكراسيه . وحتّى عرشه الذهبى الذى لا يقدر بثمن . وهنا كانت مصر فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد حية غير مخرّبة .

وتحرك الرجال الثلاثة بعيداً عن الأبواب الذهبية مدركين ما يجب عمله قبل إقلاق الملك نفسه . فمن أجل الأجيال القادمة يجب أن يفحص كل تفصيل من تفصيلات هذه المجموعة الهائلة ويدرس . وكان كارتر يعلم أن ذلك سيكون عملا طويلا مضنيًا . لكن الأمر الذى لم يكن قد سبق إلى علمه ؛ هو أن صديقه وراعيه الذى مدّ يد العون لإنقاذ الملك الشاب من ظلمات الماضى الساكنة ، سوف لا يلقى نظره على وجهه . فلقد مات اللورد كارنارفون بعد أقل من شهرين .

ولو كان هوارد كارتر يعلم بالصعاب التى تنتظره لساوره الشك فى أن يرى أى شخص من العصر الحديث توت عنخ آمون على الإطلاق ، فلقد عمل موت اللورد كارنارفون وسوء التفاهم بينه وبين الصحافة والمسئولين المصريين ، بالإضافة إلى العمل فى تحضير غرفة الدفن ، على التأخر سنتين قبل التمكن من فتح التابوت الحجرى . وفى أكتوبر عام ١٩٢٥ بدأ الكشف عن القبر ، الذى كان

قد ردم حتى لا يمكن لأى شخص الوصول إليه ، من جديد .

كانت الأضرحة الذهبية قد فككت ورفعت من القبر فى أثناء شتاء ١٩٢٣ — ١٩٢٤ ، أما التابوت الحجرى العظيم المنقوش المحتوى على التابوت الذى كان يظن أن جثمان الملك كان لا يزال راقداً فيه ، فقد كان ثقيلا جداً يستحيل رفعه ، وبقى قائماً فى وسط الحجرة ، وقد انتزع منه كل بريقه وذهبه .

وكان الأمر يتطلب فى هذا الحيز المزدحم من اللحد ، عملا هندسياً فذاً لرفع غطاء التابوت الحجرى وإزاحته ، ذلك الغطاء الذى كان يزيد وزنه كثيراً على الطن . وهنا جاءت نهاية البحث أخيراً . لكن لا إنها لم تكن النهاية الحقيقية . إذ لم يجد الباحثون فى داخل الصندوق الحجرى العظيم موميا الملك ، بل وجدوا تابوتاً جميلا مصنوعاً من صفائح الذهب بولغ فى تزيينه بصور الآلهة والتصميمات الرمزية ، وعلى رأس هذا التابوت الفخم كان يوجد قناع من الذهب المطعم صنع ليشبه الملك الميت .

وزينت جبهة القناع بشعارات مصر العليا (الأفعى) ومصر السفلى (النسر) ووضع عليها باقة صغيرة من الأزهار ، كانت لا تزال محتفظة بألوانها وبعض رائحتها بعد مضى ثلاثة وثلاثين قرناً عليها ، ومن المحتمل أن تكون واضعة الأزهار هى الملكة الأرملة ، وضعتها بيديها الرقيقتين الصغيرتين . وكان من الصعب على أولئك الذين رأوا هذا المنظر الذى يثير المشاعر ، أن يدركوا أنه قد انقضى أكثر من ثلاثة آلاف عام منذ انسحب مشيعو جنازة توت عنخ آمون على أطراف أقدامهم من القبر إلى شمس الوادى المحرقة .

ومضت الأيام دون أن يفتح التابوت الجميل . إلى أن حل شهر نوفمبر عام ١٩٢٥ ، فاحتفل بفتحه فى حضور فئة قليلة مختارة من العلماء والشخصيات الحكومية الهامة . ولقد أخذ الكشف عن المقبرة وقتاً طويلا ، إلا أن كل من كانت له يد فيه أحس بأنه جوزى أحسن الجزاء بما حدث فى ذلك اليوم من شهر نوفمبر . ولم يعد ثمة شك فى أن جثمان فرعون مسجّى تحت الكنز الذهبي ،

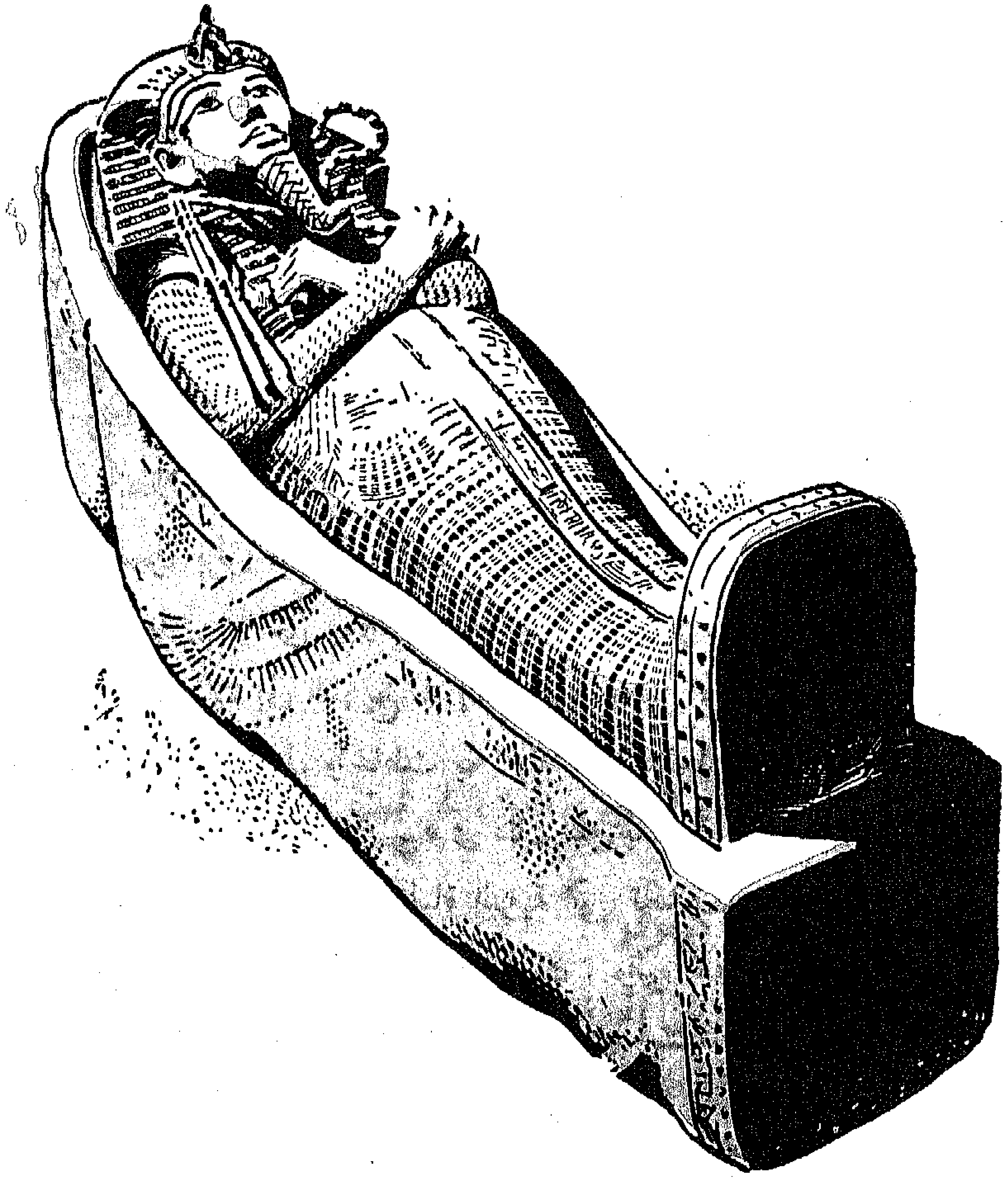

موميا توت عنخ آمون ملك مصر الصبى

إلا أنه لم يحدث من قبل على الإطلاق ، أن وجد ملك عظيم من ملوك مصر قد سجى تماماً دون أن تمسه الأيدى .

لقد كان هناك فى الواقع ثلاثة توابيت فى شكل الجسد ، موضوعة بعضها داخل بعض . وكان التابوت الثالث إلى الداخل ، وهو الذى كان يحتوى على الموميا ، مصنوعاً من الذهب الخالص البالغ سمكه حوالى ربع بوصة (½ سنتيمتر) . أما التابوتان الخارجيان فكانا من الخشب المغطى بصفائح الذهب المرصع بقطع من الزجاج . . .

وعندما ألقى المستكشفون لهذا الكنز العجيب بأنظارهم على وجه الملك الصبى ، وجدوا أنه لا يزال يحتفظ بملامحه . ولا بد أن ذلك المنظر قد جعل الكثير من الزوار يحسون بالروابط التى تربط بين بنى الإنسان بأجمعهم ، بين أولئك الذين عاشوا فى الماضى ، والذين يعيشون فى الحاضر . وبأن بوابة قبر توت عنخ آمون لا تؤدى بنا إلى التاريخ ، إنما تجعلنا نتغلغل فى قلب حياة صبى عاش وتنفس وراودته الآمال وأحاطت به المخاوف ، مثلما يحدث لنا تماماً فى هذه الأيام . ترى ماذا كان أهم شىء فى ذلك القبر بالنسبة للمستكشفين ؟ هل كان الكنز الذهبى ، ومستلزمات الحياة اليومية التى تكشف عن أسرارها ، أم تلك الباقة من الأزهار الموضوعة على جبين الملك ، والتى ظهرت حقيقية جداً حتى أنها بدت كأنها لا تزال تحتفظ بالدفء الذى استمدته من يدى الملكة الشابة الجميلة ، وبالملوحة التى تركتها عليها دموعها ؟

٤

التنين الذى لم يمت

بعثة بيردن إلى جزيرة كومودو :

من الأمور الساحرة عن المعرفة البشرية أنها لا تكمل أبداً ، ففى فترات معينة من حياتنا يميل بعضنا إلى الظن بأن المعرفة أكتملت ، بالنسبة لنا على الإطلاق ، ولا يوجد ما نتعلمه أكثر مما نعرف . ولعل ذلك الشعور شبيه إلى حد ما ، بشعورنا ، بعد أكلة ثقيلة ، بأننا لا يمكننا أن نأكل أى شىء آخر ، فإذا ما انقضت بضع ساعات أخرى ، عاد إلينا الجوع مرة ثانية .

وإذا عن لك أن تعتقد أن جميع صور الحياة الكائنة على وجه الأرض قد تم استكشافها وتسميتها ، فمن المستبعد أن تفكر فى تنظيم بعثة لصيد التنين ؛ وربما تجد أنه من الأسهل عليك أن تلجأ إلى كتب التاريخ الطبيعى ، أو

الموسوعات لتكتشف أنه لاوجود لتلك الوحوش الخيالية، هكذا يكون اكتشافك لو بحثت فى كتب التاريخ الطبيعى القديمة التى نشرت منذ أوائل القرن السابع عشر.

وإنها لحقيقة أن كونراد ڤون جيسنر عالم القرن السادس عشر المشهور فى التاريخ الطبيعى ، الذى توفى عام ١٥٦٥ أفرد باباً كاملا عن التنين فى كتابه « تاريخ الحيوانات » .

ولو أنك أخبرت الدكتور جيسنر أنك لا تعتقد أن التنين ليس له مكان فى الكتب العلمية الجدية ، لنظر إليك بلا شك ، نظرة دهشة واستغراب ، ألم ير الدكتور كاردانوس الذى عاش فى بافيا بإيطاليا ، فعلا تنانين مجففة فى باريس ؟ لقد رآها بالتأكيد . وأغلب الظن أنها كانت تنانين صغيرة ، إذ يشير الدكتور كاردانوس إلى أنها كانت صغيرة جداً .

ولقد طبع رجل فرنسى ، كان معاصراً للدكتور كاردانوس والدكتور جيسنر فعلا صورة لهذا المخلوق الذى يسترعى الاهتمام . ولم يكن الحيوان الذى ظهر فى الصورة غامضاً أو خرافياً كما قد يبدو . إنما كان فى الحقيقة صورة مشابهة إلى حد كبير لوحش يرد ذكره فى كتب التاريخ الطبيعى الحديثة تحت اسم التنين أو على الأقل تحت الاسم اللاتينى المقابل له Draco volans التنين الطائر .

لم ينزعج علماء التاريخ الطبيعى فى القرن السادس عشر الذين كتبوا عن التنين ، من حقيقة أن المخلوق الذى كتبوا عنه ، كان المفروض فيه أنه مخلوق ضخم من أكلة لحوم البشر ، يشارك المردة فى « بخ » النار ، ولن يغير الأمر فى شىء أن المخلوق الذى رأوه فى عينات باريس المجففة كان طوله أقل من ٢٥ سنتيمتراً بما فى ذلك ذيله . فعلى كل حال لابد من أن التنين يفرخ من بيضة ، ولا يمكننا إدخال تنين كبير فى بيضة . وعلى ذلك فقد استقر رأيهم على أن العينات الباريسية كانت تنانين صغيرة . وبدت لهم حقيقة أنه لم يتأت لأى إنسان الحصول على عينة مكتملة النمو حية أو ميتة أمراً طبيعياً للغاية . فلقد كانت النتيجة التى انتهوا إليها أن التنين البالغ كان له من الذكاء ما يكفى لأن

يجعله ينأى بنفسه عن طريق الإنسان !

ولما تأتى للعلماء أن يعرفوا المزيد عن تصنيف حياة الحيوان ، نحّوا التنين الضخم جانبًا على اعتبار أنه خرافى ، وأغفلوا ذكره فى كتبهم . ولكنهم أبقوا على التنين الطائر فيها لأنهم كانوا يعلمون ما هو وأين يعيش . فلقد كان « ولا يزال » عظاءة « سحلية » صغيرة تعيش فى شبه جزيرة الملايو وفى بعض جزر أرخبيل الملايو — جاوة وسومطرة وبورنيو .

وتوجد فى الواقع ، مخلوقات أكبر كثيراً وأقرب شبهاً بالتنين تعيش فى ذلك الجزء من أستراليا القريب من الجانب الشرقى لأرخبيل الملايو . ونرى فى صفحة (٩٤) صورة إحدى تلك المخلوقات ، التى يصل طولها إلى ٩٠ سنتيمتراً . وإذا كان أى شىء آخر أقرب منها شبهاً بالتنين فلابد أن يكون تنيناً .

لم يكن هناك من بأس فى أن يعرض العلماء عن الفكرة الأسطورية للتنين ، إلا أن الملايين من الناس فى كثير من بقاع العالم كانوا يؤمنون بأنهم أعلم منهم . وعلى كل حال فهل رأى العلماء كل شىء وذهبوا إلى كل مكان ؟

لقد وجد تصوير واضح جداً لوحش لا يمكن وصفه إلا بالتنين على بوابة حصن بابليون مقترناً بصورة وحش آخر كان المعروف عنه أنه حقيقى لا خرافى . واستخدم الصينيون صورة مقنعة جداً للتنين كشعار للقوة الإمبراطورية . وظل هذا الشعار على الراية الصينية حتى وقت حديث نسبياً . لذا قال أولئك الذين لم يكن عليهم أن يتصفوا بحذر العلماء ، إنه لابد من وجود سبب ما لاعتقاد الإنسان بوجود مثل هذا المخلوق .

لم تبدأ صورة علم الحفريات تتضح إلا فى أوائل القرن التاسع عشر . « وعلم الحفريات هو دراسة الكائنات الحية التى كانت موجودة فى العصور الجيولوجية والتى حفظت بقاياها على صورة متحجرة » . وقبل القرن التاسع عشر كان اكتشاف العظام الكبيرة التى لا يمكن أن تنسب إلى حيوان معروف ، يؤخذ فى الغالب على أنه برهان على وجود التنين . وقد ذهب الصينيون إلى حد استخراج

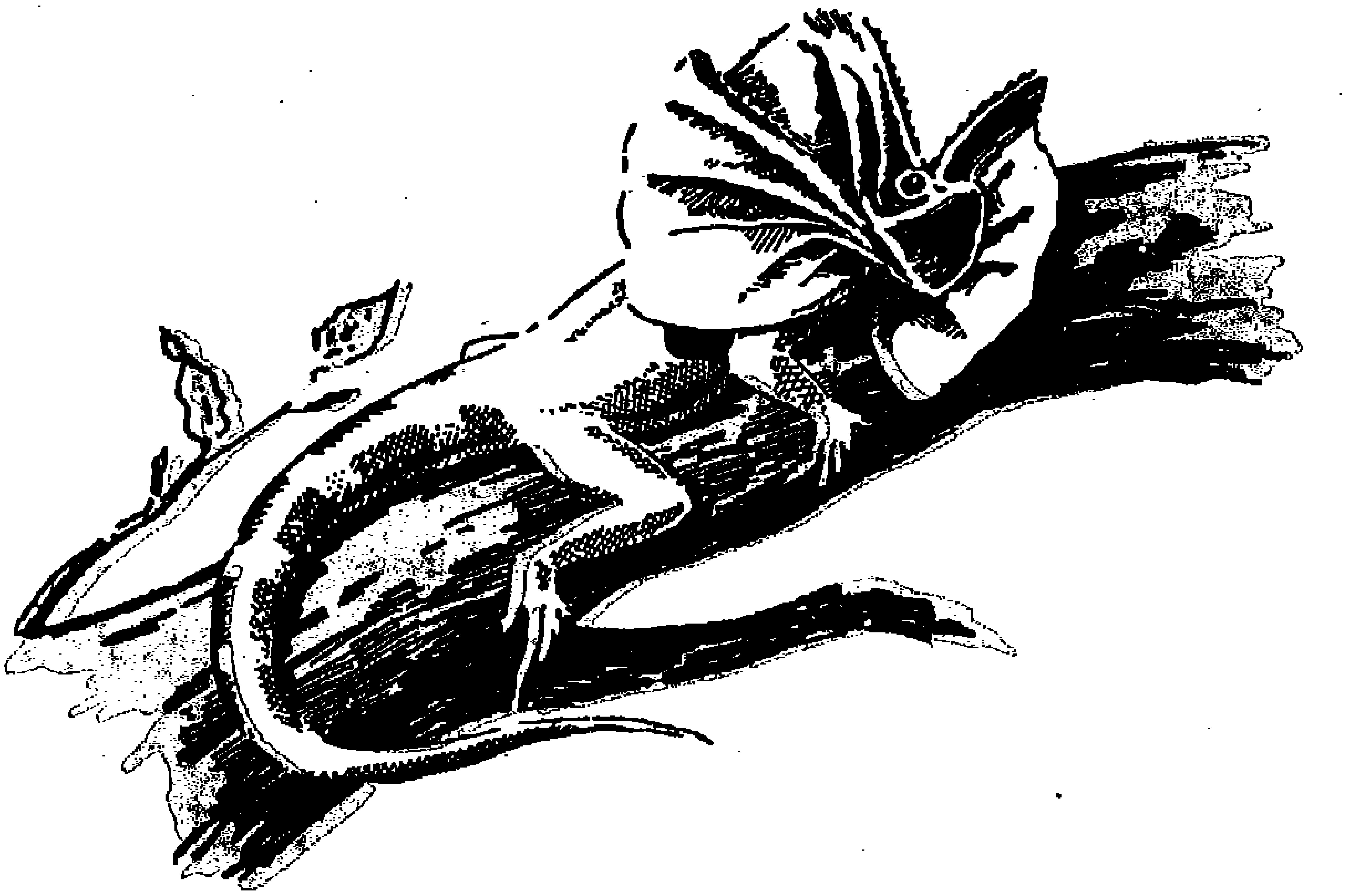

المخلوق الشبيه بالتنين الذى وجد فى أستراليا

العظام المتحجرة التى يوجد فى الصين مستودع كبير لها ، وسحقها ثم بيعها كمسحوق عظام وأسنان التنين ، وكان الاعتقاد الذى ساد لزمن طويل أن هذا الدواء فيه الشفاء من جميع الأمراض تقريباً .

وحقيقة إمكان معرفة تلك العظام ونسبتها إلى حيوانات الأزمنة السحيقة التى يعرفها العلماء كما يعرفون الحيوانات الحية ، لا تُثبت ، وهذا حقيقى ، أن شيئاً مثل التنين الكامل كان له وجود على الإطلاق ، إلا أن هناك بعض الصعوبات ، فالظاهر أن أقرب تلك الحيوانات القديمة شبهاً بالتنين انقرضت قبل ظهور الإنسان على الأرض بملايين السنين ولا يحتمل إذن أن يحمل الإنسان أى ذكرى لها .

ومهما يكن من شيء ، فنحن نعلم أنه حدث عدة مرات خلال الأعوام العشرين الماضية أن التقطت شباك الصيد فى الشاطئ الشرقى لأفريقيا سمكة طولها متر ونصف متر ويزيد وزنها على ٤٥ كيلوجراماً ، والمعتقد فيها أنها انقرضت قبل ظهور الإنسان بملايين السنين .

فلماذا إذن لا يوجد التنين ؟

وطبيعى أنه من السهل القول بأن التنين لم يعش فى البحر بل عاش على الأرض ، ولقد استكشفت الأرض بصورة أتم من استكشافنا للبحر على الرغم من اختراع كرة بارتون للغوص ، كما أنه لا توجد على الأرض أماكن كثيرة يمكن لتنين له من الضخامة ما يسمح باعتباره أى شىء إلا خيبة أمل ، أن يختبئ فيها .

وعلى الرغم من ذلك ، فلقد كانت هناك فكرة ملحة تنادى باحتمال اختباء الحيوانات القديمة التى افترض انقراضها ، فى بقعة أو أكثر من الأجزاء غير المعروفة تماماً من العالم . فكان لا يزال هناك أماكن لم تستكشف فى أفريقيا وأستراليا والهضاب الضخمة الواقعة على الحدود بين فنزويلا — غيانا فى أمريكا الجنوبية . ولقد استخدم السير آرثر كونان دويل تلك المنطقة الأخيرة كمسرح لقصته « العالم المفقود » تلك القصة الأخاذة التى ساعدت على إحياء الفكرة المنادية بأن حيوانات التنين أو ما هو أسوأ لا تزال تجوب الأرض .

كانت قصة « العالم المفقود » روائية لا حقيقة ، وكانت رواية خيالية جداً ، ومهما يكن من شىء ففكرة بقاء مخلوقات ما قبل التاريخ لم تكن قد ماتت كلية ، حتى فى عقول العلماء .

وفى عام ١٩١٢ تلقت هذه الفكرة ما كان يمكن أن يكون دفعة قوية لها . ففى ذلك العام رسا فريق من صائدى اللؤلؤ فى ميناء صغير فى جزيرة لا تكاد تكون معروفة كلية من جزر أرخبيل الملايو . وكانت تلك الجزيرة عبارة عن صخرة بركانية يزيد طولها قليلا على ٣٢ كيلومتراً ويبلغ عرضها نصف طولها ، وتقع ضمن ما يعرف بجزر لسرصندا التى تقع على بعد ١٦٠ كيلومتراً جنوب سلبس ، وحوالى ٩٦٠ كيلومتراً شمالى غربى أستراليا .

وكان المعروف عن تلك الجزيرة قليلا جداً فى ذلك الوقت حتى إن مصورات « خارطات » الملاحة واتجاهاتها كانت مخطئة فيما يتعلق بشاطئها . وكانت إلى

وقت قريب جداً من ذلك التاريخ مهجورة خالية من السكان كلية . على أنه كانت هناك شائعات توحى ببقاء وحوش ما قبل التاريخ عليها . أما ما إذا كان صائدو اللؤلؤ الذين زاروها عام ١٩١٢ قد رأوا تلك المخلوقات الهائلة ، أو مجرد أنهم تحدثوا مع المواطنين الملايوويين الذين سبق لهم رؤيتها ، فهذا أمر غير واضح . وعلى أى حال فقد نقل هؤلاء الصيادون قصص وجود التنانين إلى جاوة .

وكانت هذه القصص مقنعة جداً لدرجة أن المستر ب . ا . أوينز الذى كان يعمل بمتحف بويتنزورج الحيوانى فى جاوة ، أرسل بعثة للبحث عن عينات من هذا الوحش الغامض . وواضح أن الصيادين نجحوا فى مهمتهم ؛ إذ أن أوينز نشر أول وصف لحيوانات جزيرة كومودو الغامضة غير المألوفة ، قبل نشوب الحرب العالمية الأولى مباشرة . على أن ما كتبه أوينز لم يلق انتباهاً كبيراً من الرأى

العام وسرعان ما تسببت الحرب فى نسيان ذلك الاكتشاف الطريف .

ولم يخطر لأى شخص حتى عام ١٩٢٦ محاولة الإضافة إلى المعلومات السطحية التى نشرها أوينز ، وفى ذلك العام نظم عالم شاب كان يعمل فى المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى بعثة إلى جزيرة كومودو ؛ الغرض منها العودة بعينات من وحش ما قبل التاريخ لعرضه فى المتحف ، ويا حبذا لو اصطادت عينات حية لحديقة الحيوانات برونكس .

تألفت البعثة من و . دوجلاس بيردن وحرمه وصائد ذى خبرة اسمه دى فوس قضى حياته فى غابات الهند الصينية ، وخبير فى الزواحف من كلية سميث هو الدكتور إ . ر . دن . وبالإضافة إلى هؤلاء تضمنت البعثة مصوراً سينمائياً صينياً ورجلا صينياً آخر يؤدى جميع الأعمال التى توكل إليه اسمه تشو . وفى جاوة صرحت حكومة المستعمرة الهولندية للبعثة بزيارة كومودو . كما أعارت المستر بيردن قارباً بخارياً حمولته ٣٠٠ طن ، كامل المعدات ببحارته ليقطع به الرحلة التى تقرب من ١٦٠٠ كيلومتر ، من باتافيا إلى المضيق الذى يفصل جزيرة سمباوا عن فلورز .

وبعد صراع مع التيار المائى الذى بلغت سرعته ٢٠ كيلومتراً فى الساعة فى المضيق ؛ وصلت البعثة إلى مرسى على الشاطئ لكومودو فى صباح أحد أيام شهر يونية ، فوجدوها جزيرة ترتفع بانحدار كبير نحو مجموعة مركزية من القمم البركانية . وفيما بين القمم كانت توجد رقاع داكنة الخضرة من الغابات الكثيفة المغطاة بالأشواك . وكان الطقس معتدلا صافياً وفرح المستكشفون بما بدا لهم جنة العالم الطبيعية ، إذ كانت البقعة جميلة ومثيرة للاهتمام معاً .

إلا أن كومودو جزيرة نصف جرداء على الرغم من موقعها ، معشبة فى بعض بقاعها مع بعض الأشجار القليلة فى مستوى سطح البحر . وكانت أجزاؤها المنخفضة عبارة عن صخور بركانية حادة وقطع الصخرة متفككة ، فاستلزم العثور على مكان مناسب لإقامة المعسكر لصعود إلى الأراضى المرتفعة فى الداخل .

وفى صباح يوم وصول البعثة اعتكفت مسز بيردن على المركب ، وحاول المصور الصينى التخلص من دوار البحر الذى أصابه . أما الدكتور دن والمستر دى فوس اللذان كانا متحمسين للعمل فقد أقلعا نحو الشمال فى حين أن الدكتور دوجلاس بيردن تسلق المنحدرات الصخرية ميمماً شطر الغرب تحت أشعة الشمس المحرقة .

ذكرت حرارة الشمس ، بعد الصباح المنعش البارد ، بيردن ، بأنه كان حقيقة فى المنطقة الاستوائية . وأخيراً انتهى به المطاف وكانت أصابعه قد تسلخت وحذاؤه تمزق ، إلى مساحة شاسعة من الأرض الخضراء ، تناثرت فيها أشجار النخيل وأحراش الخيزران . وبينما هو هائم فى مملكته المسحورة إذا به يكتشف اكتشافاً مثيراً ، وهو آثار واضحة الأقدام ضخمة تشبه إلى حد كبير بعض حفريات آثار الديناصور التى سبق له أن رآها فى وطنه .

وعندما عاد دى فوس ودن بأخبار وجود آثار مشابهة فى الجزء الشمالى من الجزيرة بدا لهما أنهما عثرا على « العالم المفقود » أخيراً . وكان عالماً عجيباً مزدحماً بمجموعة متعددة الأنواع تثير الدهشة ، من الحياة البرية مختلطة ببعضها البعض اختلاطاً غريباً ، فلقد آوت أحراش الغابة طيوراً متعددة الألوان بعضها معروف وبعضها الآخر لم يتعرف عليه المستكشفون ، كانت تغرد وتغنى وتصفر . وكانت الغزلان تقفز خلال أحراش الخيزران والخنازير البرية تركض على الكلأ الأخضر ، والببغاوات ذات الأعراف الصفراء تتصايح من أعلى الأشجار الباسقة ، والحمام المختلف الألوان يطير من مكان إلى مكان ، ولا يفوتنا ذكر وجود أنواع من الثعابين السامة أكثر فى تعددها مما يمكن أن يوجد فى أى مكان آخر من العالم .

وبينما كان بيردن يستكشف المنطقة التى تحيط بالبركة التى اعتزم إقامة معسكر البعثة الأساسى قربها ، إذا به يكتشف أثراً واضح المعالم لحوافز مشقوقة ضخمة ، وعرف أن ذلك يعنى أمراً واحداً فقط ، هو أن تلك الآثار كانت

آثار حيوان من أخطر الحيوانات فى العالم ، وهو الجاموس الهندى الكبير ، ذو القرون الطويلة بالنسبة للجاموس الشرس الموجود فى رأس الرجاء الصالح بأفريقيا . ولقد جعل هذا التفكير المزعج ؛ فكرة الجلوس فى الغابة وانتظار ظهور التنين أمراً فيه أكثر من مجرد الإشارة . وفى الوقت ذاته كانت هناك أعمال أخرى يجب إتمامها .

وبينما كان بيردن يشق طريقه خلال حاجز الغابة المورق نحو بركة أخرى فى الصخرة البركانية ، بحثاً عن موقع للمعسكر ، إذا به تصيبه الدهشة برؤية بطتين تطيران من سطح الماء بسرعة إلى أعلى . وقبل أن ينعدم صوت طيرانهما المفاجئ إذا به يسمع صوت اصطدام عنيف خلفه ، كان له من القوة ، كما يقول ، كما لو كانت غابة الخيزران الكثيف قد انفجرت بأجمعها . وعندما قفز إلى الوراء إلى مكان خال من الأشجار رأى ذكر جاموس ضخماً يندفع نحوه مباشرة بأقصى سرعة . يتقدمه أنفه الواسع الفتحتين فى الهواء وقرناه ممتدان إلى الوراء محاذيان جانبيه كأنهما دخان قطار سريع .

لم يضع بيردن وقتاً طويلا فى اتخاذ قرار عما يفعله ، ولما كان لا يحمل معه قذائف من الصلب تخترق جلده القوى ، قفز بسرعة إلى الغابة وتسلق صخرة شديدة الانحدار . ومن العجيب جداً أن أعقب ذلك سكون تام ، إذن لابد أن الثور كان قد توقف ولكن أين ؟ حبس بيردن نفسه ، فلم يسمع صوتاً إلا صياح الببغاوات . وفجأة بدأ الوحش يقصف برعده مرة ثانية كما توقف فجأة . واندفع ببطء هذه المرة ، ونحو الغابة . وعلى الرغم من أنه ربما لم تسبق له رؤية إنسان من قبل على الإطلاق ، إلا أنه بدا كأنه مقتنع بأن ذلك الرجل لم يكن بالشيء الذى يثير قلقه .

وبعد بضعة أيام أتم بيردن تنظيمه للمعسكر الأول على الشاطئ . ثم أقلع ذات صباح لاصطياد غزال لإطعام الحمالين الوطنيين الذين كان قد استأجرهم من أمير « راجا » جزيرة سامباوا المجاورة . وبعد حصوله على الغزال صعد إلى أعلى الجبل متجهاً إلى منطقة القمم الصخرية التى زارها فى أول يوم .

وقفز بيردن بسرعة داخل الغابة

وكانت الساعة قد قاربت التاسعة والنصف صباحاً عندما وصل إلى أسفل منحدر من الصخر المتفكك ، قد نمت فوقه خصلات من الحشيش الكثيف القصير وأشجار النخيل المتناثرة . وتوقف بيردن بعض الوقت للاستراحة ، وفى أثناء ذلك سمع صوت احتكاك وتدحرج صخرة تسقط من عل . وتحول بنظره فجأة صوب الصوت فرأى مصدره . إنه الشيء الذى قطع من أجل رؤيته ١٩٢٠٠ كيلومتر .

سقط بيردن على ركبتيه وزحف إلى أعلى المنحدر متنقلا من صخرة إلى أخرى حتى وصل إلى نقطة أمكنه منها النظر ، دون أن يُرى ، إلى زمن انقضى منذ ستين مليون عام ، على حد التعبير ، وهنا وجد نفسه أمام الرأس الضخم يترنح من جانب إلى جانب ، وكان لسانه الأصفر المشقوق يندفع إلى الداخل وإلى الخارج من بين فكين بلغ طولهما ٣٠ سنتيمتراً أو أكثر صفت عليهما أسنان وحشية ، وتحرك المخلوق الخيالى القديم فى تثاقل إلى أسفل المنحدر تاركاً وراءه شمس الصباح ، يتقدمه ظل ضخم معتم بلغ عشرة أمثال حجمه .

وتفحص بيردن الوحش من خلال نظارته المعظمة وهو مختبئ فى مكمنه . فرأى جلده الخشن المتجعد الذى اسود مع الزمن وعلته آثار جروح خلفتها معارك القتال الكثيرة . وهيئ له ، بسطحه الحرشفى ، كأنه لباس من الصلب المنسوج . أما منخراه اللذان كانا عبارة عن فتحتين سوداوين فى رأس ظهرت عليه سمات الشر ، واللذان لم ينقصهما إلا النار والدخان ليجعلاه تنيناً حقيقياً فقد كانا متسعين ، وبدت عيناه السوداوان الخارقتان كما لو كانتا تبحثان عن شيء ما بين الصخور .

وظل بيردن يراقبه وهو مأخوذ به ، وأثناء المراقبة تقريباً ، قام الوحش بعمل أقرب ما يكون لما يتصف به التنين ؛ إذ اختفى ببساطة عن الأنظار . فزحف بيردن خارجاً من خلف صخرة مخبئه ولكنه لم يجد أثراً للتنين .

وبعد ذلك بدأ بيردن ورفاقه فى نصب الشراك مستخدمين الخنزير البرى

هذا هو ما قطع بيردن ١٩٢٠٠ كيلومتر من أجل رؤيته

كطعم له فأحيط الخنزير بأوتاد غرست فى الأرض ثم ربطت مع بعضها وغطيت بأوراق الأشجار فيما عدا فتحة كبيرة فقط تركت فى أحد الأطراف . ثم جردت شجرة قريبة من فروعها ، وربط فى أعلى جذعها حبل أمسك به خمسة عشر رجلا من الأهالى الأصحاء وجذبوه إلى أسفل . ثم ربط الطرف الآخر للحبل فى زناد وضع أمام الطعم وعملت فيه أنشوطة « خية » .

وعلى بعد بضعة أمتار من المصيدة أقيم مخبأ من الأعمدة الخشبية الثقيلة وغطى هو كذلك بغطاء خادع من الفروع والأوراق . ومن هذه النقطة كان على أفراد منهم أن يراقبوا الشرك ويلاحظوا اقتراب أى وحش ضخم منه . إلا أنه كان هناك عيب واحد ، فقد كان واضحاً منذ البداية أن الزائرين الأول للشرك سيكونون إما من الإناث وإما من الصغار ؛ إذ أن الذكور الضخمة كانت حذرة ، فى حين أن تلك الإناث أو الصغار لا بأس بها كعينات معملية للدراسة التشريحية إلا أن الوحوش الضخمة الحقيقية هى ما كان الصيادون يصبون إليها .

ولمنع الحيوانات الصغيرة من الوقوع فى الشرك وأكل الطعم ، ربط بيردن حبلا طويلا فى الزناد ، أوصله إلى مخبأ المراقبة . حيث كان فى الإمكان جذب الحبل لإقفال المصيدة إذا ما اقترب التنين ذو الحجم المطلوب من الطعم .

وفى الصباح الباكر اتخذ الصيادون أماكنهم فى الخفاء الخادع و بدأوا المراقبة والانتظار ، ومن حسن الحظ أن العظايا الضخمة « التنانين » بدأت كما لوكانت صماء كالحجر ؛ إذ ظلت المثينات التى يبلغ طولها ٣٠ سنتيمتراً والتى تفرغ فى عضتها السم الناقع ، وكذلك العقارب التى ليس فى لسعتها شىء من الهزل ترحف إلى داخل المخبأ لتنضم إلى المراقبين ، وكان الرجال يطلقون صيحات الذعر كلما ظهرت تلك الضيوف غير المرغوب فيها ، ويضربونها بين الأوراق الجافة التى فرشت بها الأرض .

وعندما ظهر أول التنانين كانت الشمس قد ارتفعت فى السماء ، ولقد كان تنيناً صغيراً يبلغ طوله حوالى ١٥٠ سنتيمتراً ، وسار «أوسارت» بحذر حول الشرك يزفر فى الخنزير ، الطعم الذى كان قد أصبح ناضجاً جداً فى ذلك الوقت وكان فى الحالة المناسبة تماماً ليثير اهتمام التنين . إلا أن ذلك التنين الصغير أغرب عنه دون أن يقع فى الشرك .

وتلته عينة أخرى أكبر منه نوعاً ما ، وكان مخلوقاً له من صفات التنين ما يمكنه من حمل الخنزير البرى بأكمله ، ومهما يكن من شىء فقد كان الطعم مثبتاً تثبيتاً مؤمناً فى الشرك ، وفجأة توقف هذا التنين المتوسط الحجم عن الصراع ونظر إلى أعلى ولعابه يسيل من بين فكيه الشريرين . ثم خفض رأسه وأسرع إلى الغابة ، وهنا دار بخلد بيردن « آه ، لابد أن ذلك يعنى قدوم تنين أكبر » .

ومضى نصف ساعة دون أن يحدث شىء ، ثم بدأ الوطنيون الذين كانوا داخل المخبأ الخادع يهرجون فى قلق مثير ، كما لو كانوا تمكنوا من الإحساس

لقد كان يحملق مباشرة فى وجه وحش مريع

بشيء لم يدر به الصيادون ، فنظر بيردن من خلال الجدار الخلفى للمخبأ ، وإذا به يقفز فزعاً . لقد كان يحملق مباشرة فى وجه وحش مريع من تلك الوحوش التى بقيت حوالى ٥٠ أو ٦٠ مليوناً من الأعوام دون أن تتغير تقريباً ، طبقاً لما تبينه السجلات الحفرية .

وقف التنين فى سكون تام وعيناه الكبيرتان السوداوان تحملقان بشراسة نحو المخبأ الخادع . ثم بدأ يحرك أقدامه ذات المخالب الطويلة ببطء وسار فى تثاقل وحذر متجهاً نحو الشرك ماراً بالمخبأ الخادع وشاغليه المرتجفين . وكان فى أثناء سيره البطىء نحو الشرك ، برأسه المتأرجح ولسانه المشقوق يندفع باستمرار داخلاً خارجاً ، يفحص الفتحة التى كانت تؤدى إلى الطعم المغرى .

وكان الصيادون يراقبونه من داخل المخبأ الخادع حابسين أنفاسهم وعلى استعداد لجذب حبل الزناد ، فى عذاب القلق والحيرة ، فلقد كان ذلك هو الوحش الذى يطلبونه ، وهو بلاشك أروع ما رآه أى إنسان متحضر على الإطلاق ، وكانوا يريدونه حياً ! إلا أنه كان دائماً كلما بدا عليه أنه على وشك الاندفاع والانقضاض على الطعم ، تراجع وجلس ينظر نحو الغابة ، ترى إلى متى يمكن أن يستمر الحال على هذا المنوال ؟

ويقول بيردن فى قصته عن البعثة : « فى تلك اللحظة تماماً ، سمعت همهمة غير واضحة عن بعد ، أخذت ترتفع تدريجياً ، ثم انقلبت إلى زئير مريع وخيل إلينا أن شيئاً يهبط فوق رءوسنا كما لو كانت طائرة منقضة علينا بآلاتها الدائرة بأقصى سرعة . لكنها مرت فوقنا ، وملأ الجو صوت ملايين الأجنحة ، لقد كان سرب من نحل الأدغال ماراً خلال الغابة على انخفاض . وخفت الصوت مرة أخرى إلى همهمة غامضة تكاد تكون مسموعة ، وخيم علينا بعد ذلك سكون مميت إلا من حفيف الأوراق الخفيف فوق رءوسنا . كل هذا والتنين الكبير كان لا يزال فى سكونه كما لو كان مفتوناً بالصوت الذى ربما لم يسمعه . وفجأة وقعت الواقعة » .

قفز الوحش المريع خلال فتحة المصيدة ، كما لو كانت الفكرة تعمل فى عقله القديم طوال الوقت ، ومرّ فى الأنشوطة « الحية » المعلقة وانقض على الخنزير الميت بفكيه الكبيرين . فجذب بيردن الحبل ، وقد أخرجته الإثارة عن اتزانه ، وانطلق الزناد الذى كان ممسكًا بالشجرة المثنية . وكانت الشجرة بدورها ممسكة بالحية المفتوحة التى تحيط الآن بجسم التنين . وبردّ فعل قوىّ انتصبت الشجرة فى الهواء وازداد الشد فى الحبل بإحكام الحية حول ذلك الجسم الثقيل وهزه هزًا عنيفاً رفعه من الأرض .

أخيراً ! تلك كانت الكلمة التى سمعت داخل المخبأ الخادع ، قيلت بنغمة تنم على الخلاص المقابل بالشكر والعرفان . ولكن الصيادين لم يقدروا وزن التنين الضخم حق قدره ، إذ عندما ارتدّ التنين ساقطًا نحو الأرض ، جذب معه الشجرة ثانية وانتزعها كما لو كانت عود ثقاب .

عندئذ تقدم دى فوس ، صائد الأدغال ، حاملا حبلا عملت منه عروة فى طرفه يستخدم عادة فى صيد الوحوش ، وكان قد تدرب على استخدامه استعداداً لهذه المناسبة . واقترب بحذر من الوحش الهائج متفاديًا ذيله الضخم ومخالبه المعقوفة المريعة . ورمى دى فوس بالحبل عدة مرات ولكنه فشل فى إصابة الهدف فى كل مرة من تلك المرات . إلا أنه عاد ولف الحبل فى هدوء وحاول مرة أخرى .

وانتهز دى فوس لحظة أطبق فيها الوحش فكيه الثائرين ، ونجح أخيراً فى إدخال عنق التنين الضخم فى الأنشوطة « عروة الحبل » . ثم مال إلى الوراء وجذب الحبل فأحكم الحية وربط طرفه الآخر فى إحدى الأشجار . وما إن انتهى من ذلك حتى أسرع لمعالجة الذيل الذى كان يضرب بوحشية .

ولما انتهى الصراع تقدم الوطنيون للمعاونة فى ربط ذلك الجسد القبيح فى عمود ضخم . ورفعوا العمود على أكتافهم وساروا يشقون طريقهم بصعوبة ،

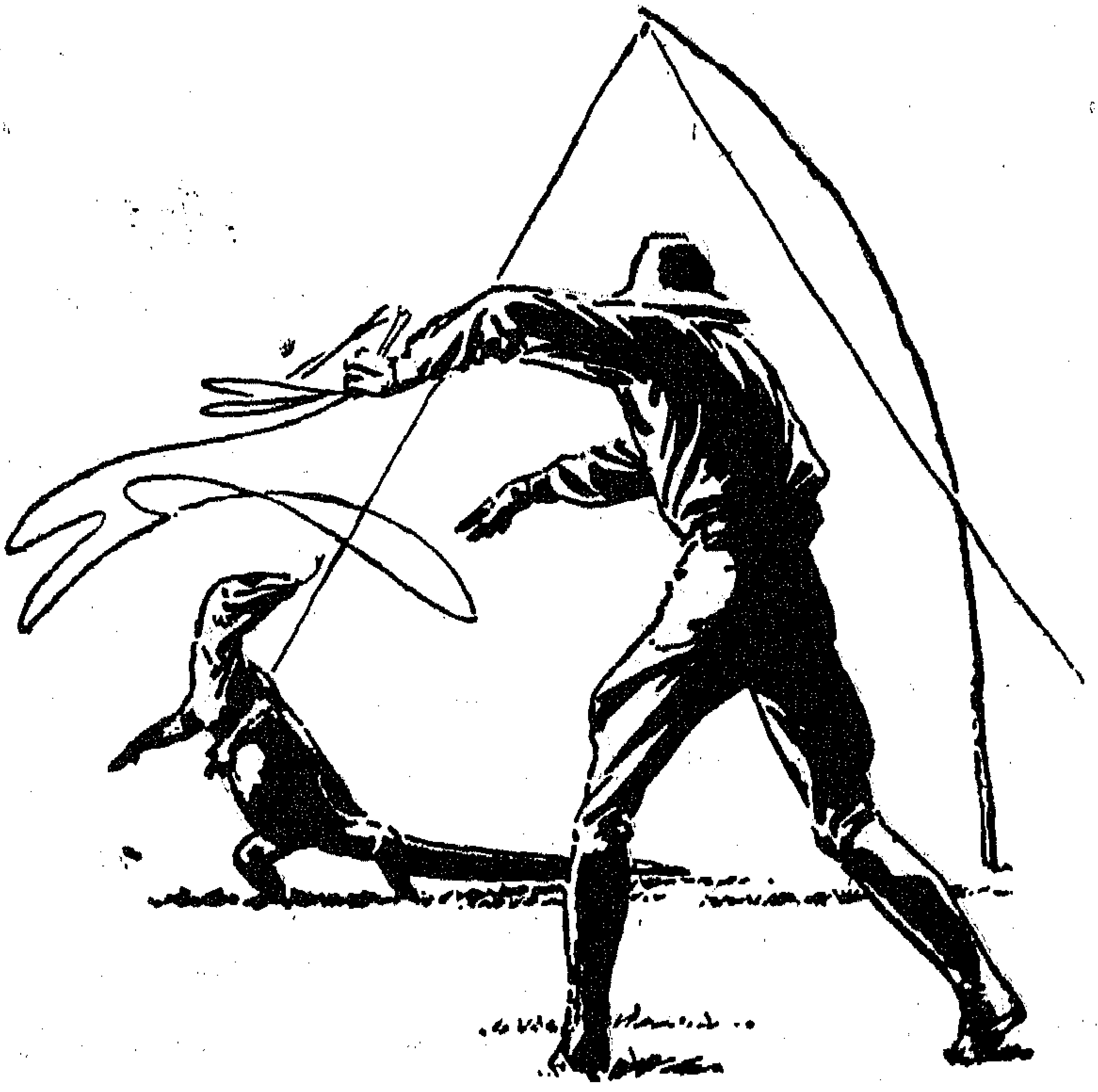

وتقدم دى فوس حاملا حبلا فى نهايته عروة

وهم يتمتمون ويهمهمون ، عائدين إلى المعسكر يجرون وراءهم تنيناً وزنه ١٣٥ كيلوجراماً .

وكان قد أعد لاستقبال الوحش قفص متين من الكتل الخشبية القوية غطى بالأسلاك الغليظة . فدفع فيه بصعوبة كبيرة . وعندما فُك الوحش المروع من عقاله بان عليه أنه لم يقهر بعد ، إذ جعل يضرب ويخبط فيما حوله فى ثورة وغضب مما جعل آسريه يخشون عدم صمود القفص لثورته .

ولقد راودهم إحساس قوى بأن الوحش ، إذا لم يتمكن من الإفلات من القفص ، فإنه سوف ينهك نفسه فى صراعه وسوف يرضخ عاجلا أو آجلا للأسر وبذلك يمكنهم تصويره وقياسه عند حلول الصباح .

ذلك كان اعتقادهم ، ولكنهم تحققوا من خطئه عندما حل الصباح فعندما ذهبوا ليطمئنوا على حال أسيرهم وكيف عاش ليلته ، وجدوا أن السلك الغليظ الذى كان يغطى فتحة التنفس فى أعلى القفص قد قطع كما لو كان خيطاً رفيعاً . لقد أثبت تنين كومودو العظيم الذى خرجت أسلافه سالمة من المعارك وتقلبات ملايين السنين أن ساعته لم تحن بعد .

ذهب أعضاء البعثة إلى عملهم بحماسة وقد زاد احترامهم لقوة غريمهم وحيله وسرعان ما تبينوا على ضوء شواهد جديدة ما يجب عليهم أن يقنعوا به .

وذات صباح قامت مسز بيردن ودى فوس بزيارة المصيدة فى الدغل إذ كانت قد أعدت باستخدام شجرة أصلب ، وكان الطعم الذى وضع فيها غزالا بأكمله . وعندما وصلا إلى المخبأ الخادع المقابل للمصيدة رأيا ما أثار دهشتهما . إذ لم تكن المصيدة مقفلة على الرغم من أن الغزال كان ممزقاً إلى نصفين ، وكوم الجزء الخلفى منه — الفخذان والأرجل والحوافر — فى كومة واحدة . ولقد تحققا من هذه الحقيقة فى ظروف غير سعيدة عندما أسر غريمهما فيما بعد .

وانفصل دى فوس ومسز بيردن ليبدآ بحثهما عن الوحش المريع فى حذر ؛ إذ كان قد دخل الدغل ليهضم الـ ١٨ أو الـ ٢٣ كيلوجراماً من اللحم والعظام . واتخذ دى فوس الطريق إلى الدغل من الناحية المنحدرة .

أما مسز بيردن فقد سارت فى الاتجاه المضاد تاركة بندقيتها أمام المخبأ الخادع ولم يكن ذلك من الحكمة فى شىء . وفجأة رأت شيئاً يتحرك على حافة الدغل إلى يمينها . وباختفائها فى الحشائش المرتفعة شاهدت وحشاً ضخماً آخر يقفز فى طريقه نحو المصيدة . فأصيبت بنوبة فزع عندما تحققت أنها كانت واقفة بين الوحش المريع وما تبقى من الطعم فى المصيدة .

وتمددت على الأرض ترتعد خوفاً من أن يحدث لها ما حدث للغزال من قبل وحاولت أن تحزم أمرها على الخطوة التالية التى تتخذها بسرعة ، ترى هل كان يجب أن تجرى وبذلك تفقد تنيناً من أكبر التنانين التى رأوها حتى ذلك الوقت ؟ أم كان يجب عليها الانتظار على أمل أن يعود دى فوس إليها فى الوقت المناسب ؟

ولندعها تقص علينا شعورها فى تلك اللحظة الرهيبة : « جعل ذلك المخلوق الأشعث يقترب منى وهو يطوح رأسه الوحشى بتثاقل من جانب إلى آخر ، وتذكرت جميع القصص الخيالية التى سمعناها عن تلك الوحوش المريعة وهجومها على الرجال والخيول ، وانتابنى ، وأنا أنصت إلى صريره القصير الذى جاء كنفخة ريح عاتية ، وأراقب عمل ذلك اللسان الضارب الشبيه بلسان الثعبان ، والذى بدا كأنه كان يحس بالخوف الذى اعترانى ، انتابنى شعور ليس من السهل علىّ وصفه .

وكان ذلك المخلوق على بعد منى يقل عن أربعة أمتار ونصف متر ، وفاحت فى أنفى رائحة الزواحف النفاذة ، وكان قد فات الأوان لكى أقفز من مخبئى فأغمضت عينىّ وانتظرت .

ثم فتحت عينى ، فى الوقت المناسب ، على رأس دى فوس يظهر أعلى

التل ، وتلا ذلك وميض ثم رصاصة استقرت فى رقبة الوحش الضخمة ، وفى لمح البصر ، تدحرج مرتطماً نحو الدغل ، ومرة أخرى أدت البندقية وظيفتها ورقد الوحش ساكناً لا حراك فيه » .

لقد تمكن تنين كومودو من الصمود لجميع الظروف وتغيرات الملايين العديدة من الأعوام ، ولكن تعطش الإنسان للمعرفة ، وكذلك أسلحته القوية ، أثبتت أنها فوق طاقة ذلك الوحش القديم ، وأذن الحاكم العام للهند الصينية الذى كان يحكم جزيرة كومودو الصغيرة لبعثة بيردن بصيد ١٥ تنيناً للأغراض العلمية . وعندما حل موعد الرحيل عن تلك البقعة الجميلة المثيرة للمشاعر كانت البعثة قد حصلت على تنينين كاملى النمو على قيد الحياة وضعا فى أمان فى قفصين ضخمين . وتضمنت مجموعتها أيضاً ١٢ تنيناً ميتاً حنطت بعناية وأعدت للعرض فى المتاحف .

ولقد أصبح واضحاً أنه لو كان الإنسان قد شارك تلك المخلوقات الخيالية فى سكنى جزيرة كومودو لأى فترة زمنية ، لكانت انقرضت كما كان الاعتقاد السائد قبل عام ١٩١٢ ، وعلى أى حال فعندما رحل الفريق عن الجزيرة فى عام ١٩٢٦ كان لا يزال هناك العدد الوفير من العينات الحية باقية عليها .

وليس هناك من شك فى أن مستعمرة وحوش ما قبل التاريخ الغريبة تزدهر الآن ، كما أنها سوف تواصل ازدهارها إذا تركت وشأنها .

ما قبل التاريخ ؟ نعم إن تنين كومودو من وحوش ما قبل التاريخ حقاً ، ولقد بقى صامداً دون تغير تقريباً منذ ما يعرف بالعصر الأيوسينى . « ولفظ الأيوسين Eocene مأخوذ عن الكلمة الإغريقية التى تعنى الفجر وتوصف به الحقبة من الزمن التى بدأت خلالها الثدييات — أرقى أنواع الحيوانات — فى جوب الأرض » وربما نتساءل ، بالطبع ، عن الفائدة الممكن الحصول عليها من ضياع الوقت والمال والمخاطرة بحياة الإنسان لكشف النقاب عن مخلوق من مخلوقات العهود السحيقة ، وما هى الأبواب التى تفتحها مثل هذه البعثة ؟ وهناك العديد

تنانين كومودو

من الأجوبة على هذا السؤال .

فالإنسان يهتمّ بمستقبله وكل شيء يتعلمه عن الماضي يساعده على تخمين أو تصور ما يتوقعه من المستقبل . ولتنانين كومودو أبناء عمومة بعض منها يفوقها فى الضخامة ، ولكن الضخم منها — التى عاشت بعضها فى أستراليا — لم تصمد مع الزمن وانقرضت . ولا محالة من أن أى شيء يمكن أن نعرفه عن حيوان صَمود كتنين كومودو سوف يلقى بعض الضوء عن صمود الأنواع الأخرى أو عدم صمودها ، بل ربما كان أهم الأمور وأبهرها عن الاكتشاف العلمى ، هو الأسئلة التى يجعلنا كل اكتشاف جديد نسألها .

وأهم سؤال يثار فى حالة تنيننا — الكئيب من ناحية لكنه طريف من ناحية أخرى — هو : ما هى الظروف التى مكنته من الصمود على جزيرة كومودو ؟ فالجزيرة ذات أصل حديث نسبيًّا ، ومن المؤكد أنه لم يكن لها وجود عندما ظهر أول تنين على وجه الأرض . وليس هناك أى دليل على أن تلك الحيوانات سبق لها أن عاشت فى مساحة أكبر من تلك التى تشغلها الآن . إلا أنه لا بد وأن تكون قد عاشت فى مساحات أكبر . فمن أين أتت إذن ؟ أين كانت عندما جعلت لفحات الحمم البركانية وفيضاناتها التى تسببت فى انبثاق جزيرة كومودو من البحر ، الحياة مستحيلة بين سمباوا وتيمور ؟

ويمكننا رؤية مجموعة من ثلاثة من تنانين كومودو فى متحف التاريخ الطبيعى الأمريكى بنيويورك موضوعة فى نموذج لموطنها فى الهند الشرقية . وإننا عندما ننظر إليها كأننا ننظر فى الماضى السحيق لنراها تحت أشجار النخيل ومن ورائها القمم البركانية الغريبة بالغة عنان السماء . وربما تنتابنا رجفة خفيفة ونحن نراقبها ونتذكر أن هذا المنظر بالذات تقوم بتمثيله مخلوقات حية فى أدغال كومودو التى تبعد ١٩٢٠٠ كليومتر عنا ، حيث لا تزال الذكور منها ترفع رؤوسها لترقب مقدم العدو ، فى حين تنهش الإناث بفكوكها المرعبة جثث الخنازير البرية الملقاة بينها .

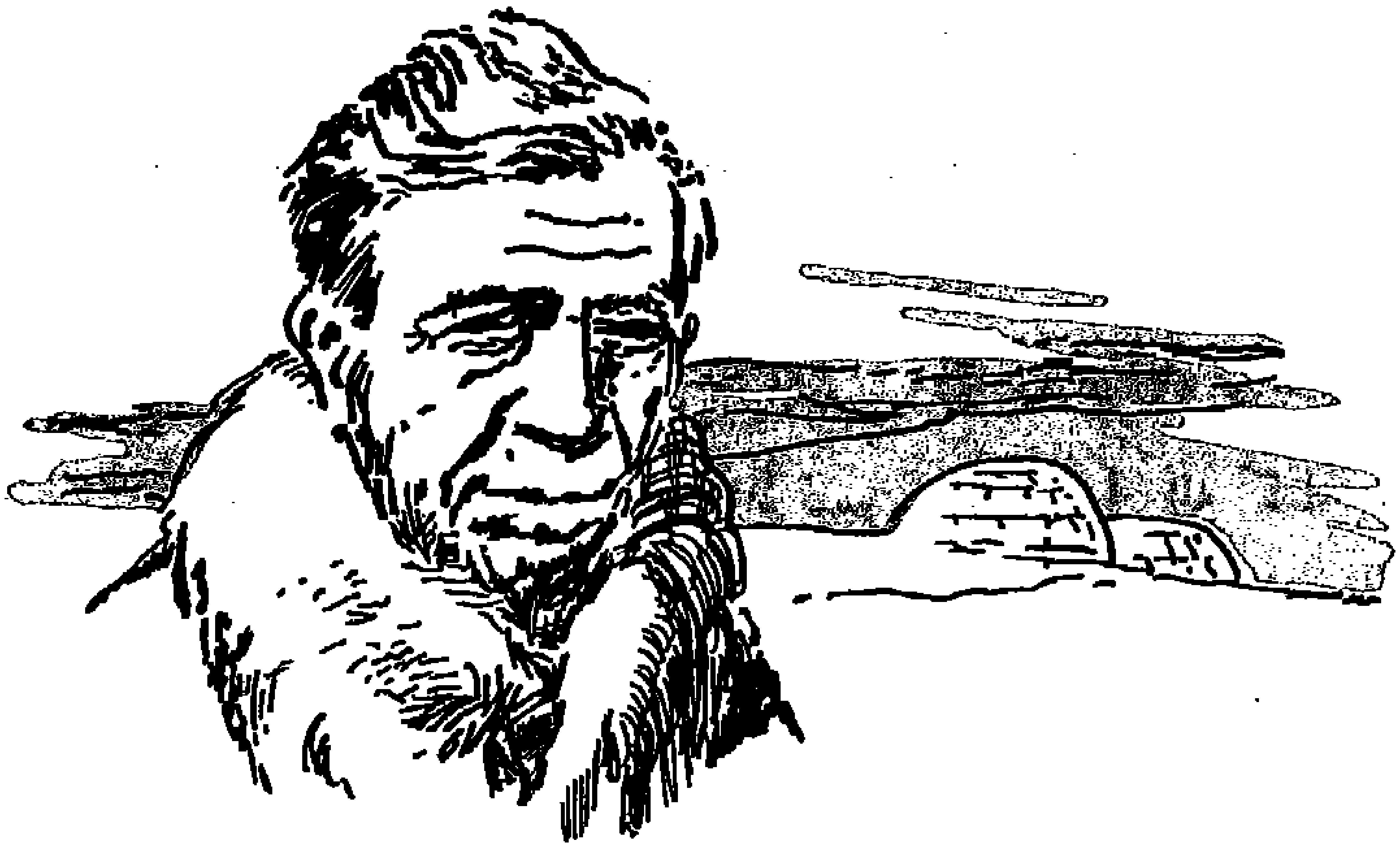

القطب الشمالى : عدو وصديق

البعثة الكندية للقطب الشمالى ١٩١٣ – ١٩١٨

منذ ظهور الإنسان على وجه الأرض وهو يحاول زيادة معرفته بالعالم وما يحتويه من أشياء . وكان السبيل إلى المعرفة سهلا فى بعض الأحيان ، وفى أحيان أخرى ضللت الأفكار غير الصحيحة الإنسان وحادت به عن الطريق الصحيح . وكانت النتيجة أن كان تقدم الإنسان نحو المعرفة الكاملة بعالمه أشبه بتقدم الضفدع فى خروجه من بئر – فكان يرجع خطوة إلى الوراء كلما خطا خطوتين إلى الأمام .

ولم يحدث أن حادت الأفكار غير الصحيحة بالإنسان عن الطريق السليم فى أى ميدان من الميادين أبعد مما حدث به فى محاولته لاعتصار آخر قطرة للمعرفة عن المناطق القطبية .

ولنلق بنظرة على القطب الشمالى الذى وصل إليه المستكشف الأمريكى

الأدميرال روبرت إ . بيرى فى اليوم السادس من أبريل عام ١٩٠٩ . والقطب الشمالى ، كما يعلم الجميع موقع ، وليس شيئاً كما أنه فى الحقيقة ليس مكاناً . إنما هو اسم يطلق على الطرف الشمالى للمحور الذى تدور حوله الأرض .

وحتى القدماء الذين عاشوا من آلاف السنين كانوا يعلمون أن القطب الشمالى – مهما كان كنهه – كان على الجليد . أما ما عرفناه ، حديثاً نسبياً فقط ، فهو أن الجليد الكائن على قمة العالم ليس ثابتاً ، بل إنه كتلة طافية ، اليوم هنا ، وغداً فى محيط يزيد عمقه على ثلاثة كيلومترات . ولو ظل الأدميرال بيرى جالساً على الجليد عند القطب الشمالى لا كتشف بعد فترة طويلة من الزمن أنه قد تحرك إلى مكان آخر ، إذ أن الجليد يتحرك .

وربما نكون قد ازددنا معرفة عن القطب الشمالى منذ زمن الأدميرال ، إلا أن استكشافه كان عمل رجل عظيم شجاع . ولقد وصل إلى القطب لأنه تعلم كيف يسير على الجليد فى أقصى الشمال ، وهو عمل لم يتعلمه مستكشف من قبله بالقدر الكافى ، وكان ذلك العمل وسيظل نصراً عظيماً على الرغم من ضآلة القيمة العلمية لاكتشاف القطب .

لم يكن القطب الشمالى هو الشىء الوحيد الذى جذب الناس إلى المنطقة القطبية ، بل كانت هناك ولا تزال أشياء أخرى ، منها اثنان لهما أهمية خاصة :

أولهما كان البحث الذى أخذ كولومبس عبر المحيط الأطلنطى ، وهو محاولة اكتشاف طريق بحرى من الشرق إلى الغرب أو بمعنى آخر من الغرب إلى الشرق . أما الأمر الثانى فكان الرغبة فى العثور على أرض لم يسبق استكشافها .

ومهما كانت الوسيلة التى استخدمها الناس للوصول إلى أقصى الشمال فى استكشافهم للمنطقة القطبية الشمالية طوال قرون عديدة ، فقد كان على كل مستكشف أن يصارع عدواً رئيسياً واحداً – هو الجليد القاسى الأبدى . فليس من المستغرب إذن أن اعتبر أغلب مستكشفى القطب ، الجليد الشىء الوحيد الذى يجب أن يقهر .

كان هذا الشعور أحد الأمور التى أثرت فى نظرة الإنسان لاستكشاف القطب ، أو لنقل : « لاستكشاف المنطقة القطبية . فالجليد الأبدى يوحى لأغلب الناس بالقفر ، كما توحي به الصحراء تماماً ، ويوحى القفر بانعدام الحياة، وكانت فكرة الناس عن الكيفية التى يصلون بها إلى المنطقة القطبية مبنية أساساً على الفكرة بأن الرحلة إلى تلك المنطقة تشبه إلى حد ما العوم تحت المياه الباردة لمسافة بعيدة .

وإذا كنت بصدد العوم تحت الماء فإنك تأخذ شهيقاً طويلا وتمسك بالهواء فى رئتيك ، وسوف تتمكن من البقاء تحت سطح الماء بالقدر الذى يبقاه نفسك فقط ، وقد ظن الناس أن المسافر إلى المنطقة القطبية يجب عليه أن يتزود بمقومات الحياة وأنه يمكنه أن يبقى على قيد الحياة فى أقصى الشمال بالقدر الذى تبقاه مؤنته فقط .

والآن إذا أخذ أحدنا شهيقاً عميقاً وغاص تحت الماء ، ثم ارتطم بعائق أو حبس بين صخرتين فإن نفسه ينهار ويغرق ، وكذلك إذا حبس أحدنا فى الجليد القطبى ، كما حدث لجميع المستكشفين الذين استخدموا السفن فى وقت أو فى آخر ، فإن مؤنته تنتهى ويكون فى ذلك نهاية حياتهم .

وعلى الرغم من نبوغ الإنسان فى إيجاد سبل لعمل المستحيلات ، فإن المئات العديدة من الأرواح راحت فى الشمال نتيجة تطبيق سياسة « خذ شهيقاً عميقاً واحبس نفسك » فى الاستكشاف . ولقد تسبب هذا الاتجاه فى التفكير فى وقوع مأساة من أعظم مآسى المنطقة القطبية . والعجيب أن ما نتج عن هذه المأساة هو التطور الحديث لاستكشاف المنطقة القطبية الشمالية .

ففى عام ١٨٤٥ أقلعت السفينتان « الجحيم المظلم » و « الرعب » التابعتان للبحرية الإنجليزية ، من إنجلترا تحت أمر السير جون فرانكلين حاملتين ١٢٩ رجلا . وكان الغرض من هذه الرحلة استكشاف طريق من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهادى خلال الجليد وعبر الأراضى المجهولة شمالى كندا . وكان السير

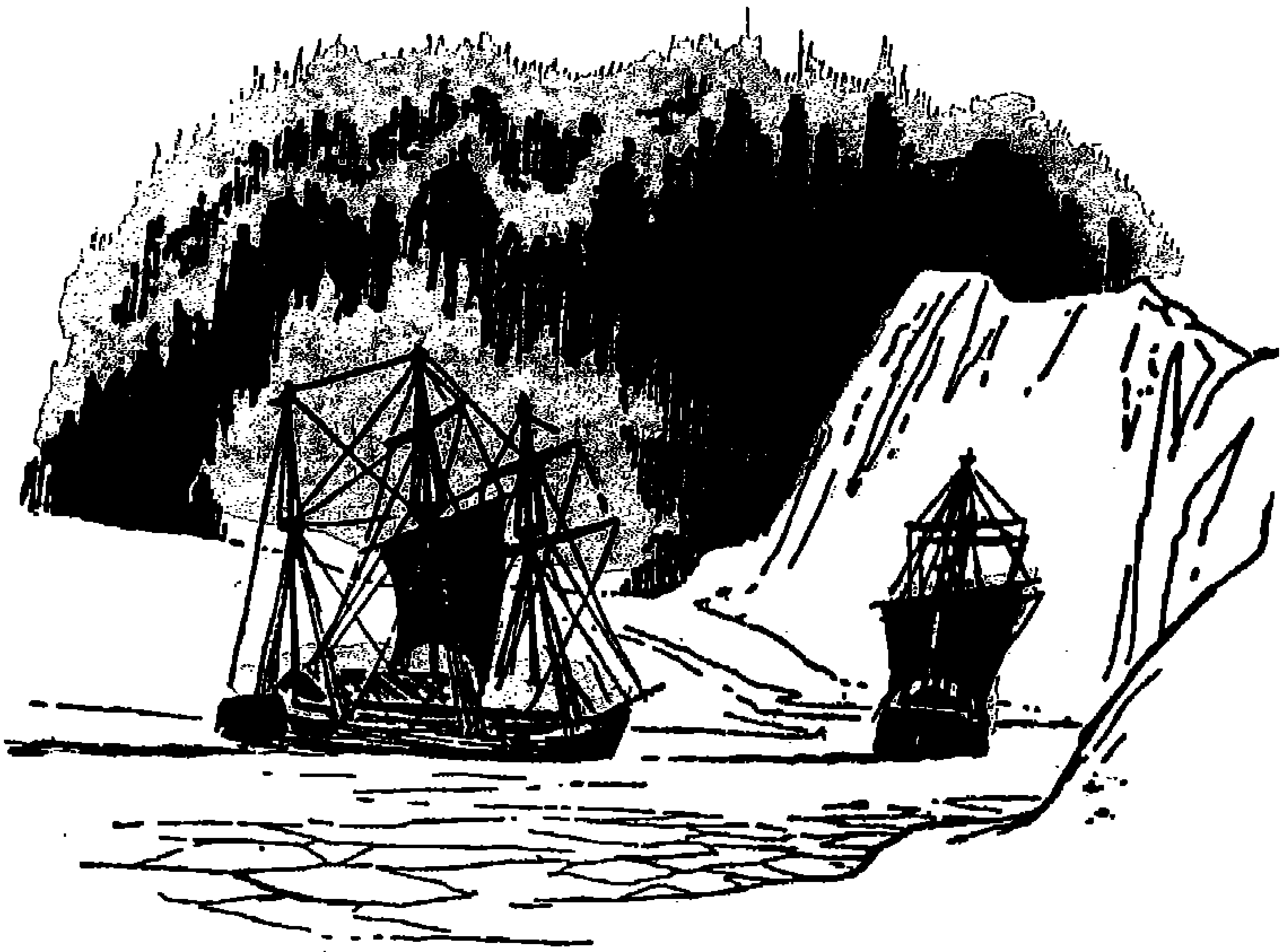

ورئيت السفينتان عند مدخل مضيق لانكستر

جون ضابطاً مرموقاً حكيماً وشجاعاً ، ولو أنه لم يكن قوى البنية . وكانت سفينتاه ورجاله أقوياء ذوى خبرة وأخذ معه من المؤن ما ظن أنه يكفى لخمس سنوات .

وفى أواخر يولية عام ١٨٤٥ شوهدت السفينتان من سفينة لصيد الحيتان عند مدخل مضيق لانكستر الذى يقع على مسافة تبلغ حوالى ١٢٨٠ كيلومتراً من شمال النهاية العلوية لخليج هدسون، و١٤٤٠ كيلومتراً تقريباً شرق بحر بوفورت. ومنذ ذلك الحين لم ير رجل واحد من مائة وتسعة وعشرين رجلا حياً مرة أخرى على الإطلاق اللهم إلا إذا كان الإسكيمو قد رأوهم ، ولم يعثر على أى من السفينتين ، ولقد عثرت بعثة أخرى قامت فيما بعد على سجل يروى ما قامت به البعثة حتى أبريل عام ١٨٤٨ ، ولكن ما حدث لأولئك الذين صمدوا حتى ذلك التاريخ لم يمكن معرفته إلا عن طريق الحدس والتخمين .

وتتابعت البعثات المنظمة للبحث عن فرانكلين لعدة سنوات بعد ذلك التاريخ ولكنها وجدت فقط آثاراً مبعثرة لبعثته . وعلى أى حال فقد أضاف

الباحثون إلى معرفتنا بالمنطقة القطبية الشمالية ومسالكها أكثر مما كان يتعلمه الناس فى خمسين عاماً لولم يدفعوا للبحث عن البطل المفقود . وكانت نتيجة ذلك أن أسهم السير چون فرانكلين دون أن يعرف فى سيطرة الإنسان على العالم القطبى .

إلا أن المستكشفين ، وحتى أمهرهم وأكثرهم خبرة ، كانوا بطيئين فى الانتفاع من دروس المآسى والموت . وبقى الأمر كذلك حتى جاء قائد عظيم آخر وبعثة أخرى ، بعد مضى ٦٨ عاماً ، ليبين الطريقة التى يمكن أن تقهر بها المنطقة القطبية الشمالية وتقل مخاطرها . ومن الغريب أن البعثة الكندية للمنطقة القطبية ١٩١٣ — ١٩١٨ بقيادة ڤيلجا لمورستيفانسن التى وضعت نهاية لسياسة « خذ شهيقاً عميقاً واحبسه » فى السفر على الجليد ، ولقد كانت هى أيضاً آخر بعثة أرضية عظيمة نظمت إلى المنطقة الشمالية .

كان ڤيلجا لمورستيفانسن شاباً من أصل أيسلندى ولد فى كندا ، وتعلم فى الولايات المتحدة الأمريكية . وعلى الرغم من أن عمره كان ٣٤ عاماً فقط فى عام ١٩١٣ فإنه كان قد سبق له قضاء ستة أعوام فى المنطقة القطبية الشمالية ضمن بعثتين مختلفتين . وقد تدرب فى تعليمه ليكون عالماً فى الأجناس البشرية — وعالم الأجناس البشرية هو الذى يهتم بالتاريخ الطبيعى للإنسان — ولقد قام فى رحلتيه الأوليين بدراسة أهالى المنطقة القطبية فاكتشف فريقاً من الإسكيمو لا يعلمون شيئاً تقريباً عن حضارة الجنس الأبيض ، وكانوا فى أغلب تصرفاتهم بدائيين كما لو كانوا من مخلوقات ما قبل التاريخ .

درس ستيفانسن الإسكيمو لا كعينات متحفية ، ولكن كمخلوقات بشرية أمكنها أن تعيش فى منطقة أصيب فيها الرجل الأبيض عادة بالفاجعة . فدرس طعامهم وطرقهم فى الصيد وبناء المنازل وملابسهم وسبل ترحالهم . وقرر أنه إذا كانت تلك الأمور قد مكنت الإسكيمو من الحياة فى المنطقة القطبية الشمالية فإنها يمكن أن تعين الرجل الأبيض على الصمود والبقاء فى المناطق القطبية .

وبإطالة مدة بقائه بين الإسكيمو ازداد ما أخذه عنهم وكانت النتيجة أنه سرعان ما إعتاد المعيشة فى المنطقة القطبية الشمالية شتاء أو صيفاً ، وسواء أكان الطقس جميلا أم رديئاً .

وعلى أى حال فلم يكتف ستيفانسن بما أمكنه أن يتعلمه من الإسكيمو وساعده عدم انزعاجه بمعتقداتهم وخرافاتهم البدائية على ابتكار أفكار قال الإسكيمو عن بعضها إنها تجلب له الموت والفناء . وباصطياده لسباع البحر والدببة من البحر الجليدى شمال ألاسكا لم يجد سبباً لتصديق الإسكيمو عندما قالوا له إنه إذا ذهب بعيداً جداً عن الشاطئ فسوف لا يجد سباع البحر أو دببه .

وفى عام ١٩١٣ اقترح ستيفانسن تنظيم رحلة إلى المنطقة القطبية الشمالية تكون من أتم الرحلات العلمية تنظيماً ، ووضع الخطة بحيث تنقسم البعثة إلى قسمين ، يذهب أحدهما إلى أقصى ما يمكن شمالا على الجليد أو خلاله للتحقق من وجود أرض يابسة هناك ، وكان على القسم الآخر أن يقوم بعمل مساحة ورسم الخارطات ودراسة أحوال الأهالى ، وحياة الحيوان والنباتات البحرية والبرية وكذلك دراسة الخامات المعدنية فى المنطقة وأخذ الأرصاد الجوية وجمع أى معلومات أخرى مفيدة .

ولما كان الجزء من المنطقة القطبية الذى أراد أن يعمل فيه يقع أغلبه فى كندا أو فى شمالها فقد وضعت الحكومة الكندية البعثة تحت رعايتها ، وبعد الانتهاء من الإعداد الذى بذلت فيه عناية فائقة ، أبحر ستيفانسن من نوم بألاسكا فى يولية عام ١٩١٣ على ظهر باخرة كبيرة صاحبتها سفينتان صغيرتان ، وأقلت السفن الثلاث فريقاً كبيراً من الرجال العلميين والبحارة ، كما حملت معها أدق مجموعة من المعدات لم يسبق أن اكتملت مجموعة مثلها لاكتشاف المنطقة القطبية الشمالية .

ولقد رسمت الخطة للرحلة العظيمة بعناية عظيمة بحيث كان هناك بديل لكل شيء ، فإذا حالت الظروف دون تنفيذ إحدى خطوات البرنامج كانت

هناك خطوة أخرى تتخذ بدلا منها فى الحال .

ولقد وضحت مزايا تلك الخطة فى وقت أسرع مما كان يتوقعه أعضاء البعثة ، فيممت كل من الباخرتين الصغيرتين « ألاسكا » و « مارى ساكس » وجهتهما نحو الشرق قريباً من شاطئ شمال ألاسكا ووصلتا إلى بقعة يمكن إقامة معسكر الشتاء فيها . ولم يكن للباخرة الكبرى « كارلوك » حظ الباخرتين الأخريين ، فلقد حدث أن انغرست عميقاً فى الجليد فى الأسبوع الثانى من أغسطس ولم تتحرك على الإطلاق بفعل آلاتها ، ولم يعرف وقتئذ بالطبع ، أن الباخرة « كارلوك » قد انتهت ، ولكن كان المسلم به هو أنه كان عليها أن تقضى الشتاء فى الجليد .

كانت تلك الحادثة ضربة قاسية ، ولكن احتمال حدوثها كان قد أخذ فى الاعتبار . كانت ضربة لأن أعضاء البعثة كانوا يتوقعون أن يتقابلوا فى المعسكر الشتوى حيث تجتمع الفرق العلمية وتوزع المعدات فيما بينها . لكن ما حدث هو أن بعض الناس الذين كان يجب أن يكونوا على البر ، كانوا على ظهر الباخرة « كارلوك » فى حين أن البعض الذين كانوا فى المعسكر الشتوى فعلا انفصلوا عن معداتهم .

وكان من أهم الأمور الواجب مراعاتها هو توفير سبل الصحة والسعادة لأولئك الذين انعزلوا على ظهر الباخرة كارلوك . وكان ستيفانسن يعلم أن الوفير من اللحم الطازج يساعد على ذلك ، وحيث إن الباخرة انغرست فى الجليد بالقرب من منطقة كان القائد يعلم أنها أرض صيد طيبة ، فاصطحب معه ثلاثة من أعضاء البعثة ، واثنين من الإسكيمو ، وثلاث زلاقات ، وشق طريقه فوق الجليد نحو الشاطئ ، وفى نيته ألا يغيبوا أكثر من أسبوع أو أسبوعين ، وكان أحد الذين صاحبوا ستيفانسن فى هذه الرحلة مصوراً فوتوغرافياً أصبح اسمه فيما بعد — السير هيوبرت ويلكنز — من الأسماء المشهورة فى تاريخ المنطقتين الشمالية والجنوبية .

وفى أثناء سير فريق الصيد فى طريقه إلى الشاطئ هبت عاصفة مروعة

واضطر رجال الفريق للتوقف حتى مرت ، وعندما تمكنوا ثانية من النظر نحو البحر كانت الباخرة كارلوك قد اختفت ، ولم يرها أحد من فريق الشاطئ مرة أخرى ، هذا على الرغم من ورود أخبار عنها من عدة أماكن على ساحل ألاسكا .

وكان ستيفانسن يعلم أنها ربما تظهر فى الربيع لكنه كان يخشى ألا تظهر . ذلك كان موقفه كقائد البعثة بأكملها ، سلب منه نصف رجاله ومؤونته وأكبر سفنه ، كان موقفاً صعباً جداً .

وكان نصيب ستيفانسن فى عمل البعثة هو استكشاف بحر بيوفورت الذى يقع بين رأس بارى وألاسكا وجزر بارى شمال كندا . وكانت مهمته هى البحث عن أرض جديدة فى بحر بيوفورت ذاته وشمال أرخبيل بارى .

والآن وقد استقر رأيه على أن فقد كارلوك لا يبرر قضاء الشتاء فى خمول ، عقد العزم على تنفيذ خططه . ولم يكن هناك داع للقلق على الرجال الذين عزلوا على سطح السفينة ، إذ كانت لديهم سبل الوصول إلى الشاطئ فوق الجليد إذا كانت السفينة قد تحطمت ، أضف إلى ذلك أنه كان لديهم الوفير من المؤن .

وتنفيذاً لهذا القرار قضى ستيفانسن خريف ١٩١٣ — ١٩١٤ وشتاءه فى سفر على شاطئ بحر بيوفورت الألاسكى ، ملتقطاً معه فى أثناء سفره رجالاً من الإسكيمو والكلاب والزلاقات والمؤن ، ومواصلا رسم خطط العمل لكل من قسمى البعثة . وذهب فريق العلماء الذين اتجهوا جنوباً إلى المعسكر الشتوى على زعم أنهم لا يمكنهم القيام بأى عمل خارجى حتى حلول الربيع . ولم ترق لهم رغبة ستيفانسن فى مواصلة استكشافه لجليد بحر بوفورت ، إذ كان يعتقد أغلبهم أنه لم يكن ليقدر على عمل أى شيء بدون سفينة . لكنه كان أعرف منهم ، وكان على أهبة السفر عند حلول شهر مارس عام ١٩١٤ .

ولو أن شخصاً وقف فى ذلك الوقت على الشاطئ الشمالى لألاسكا ونظر نحو

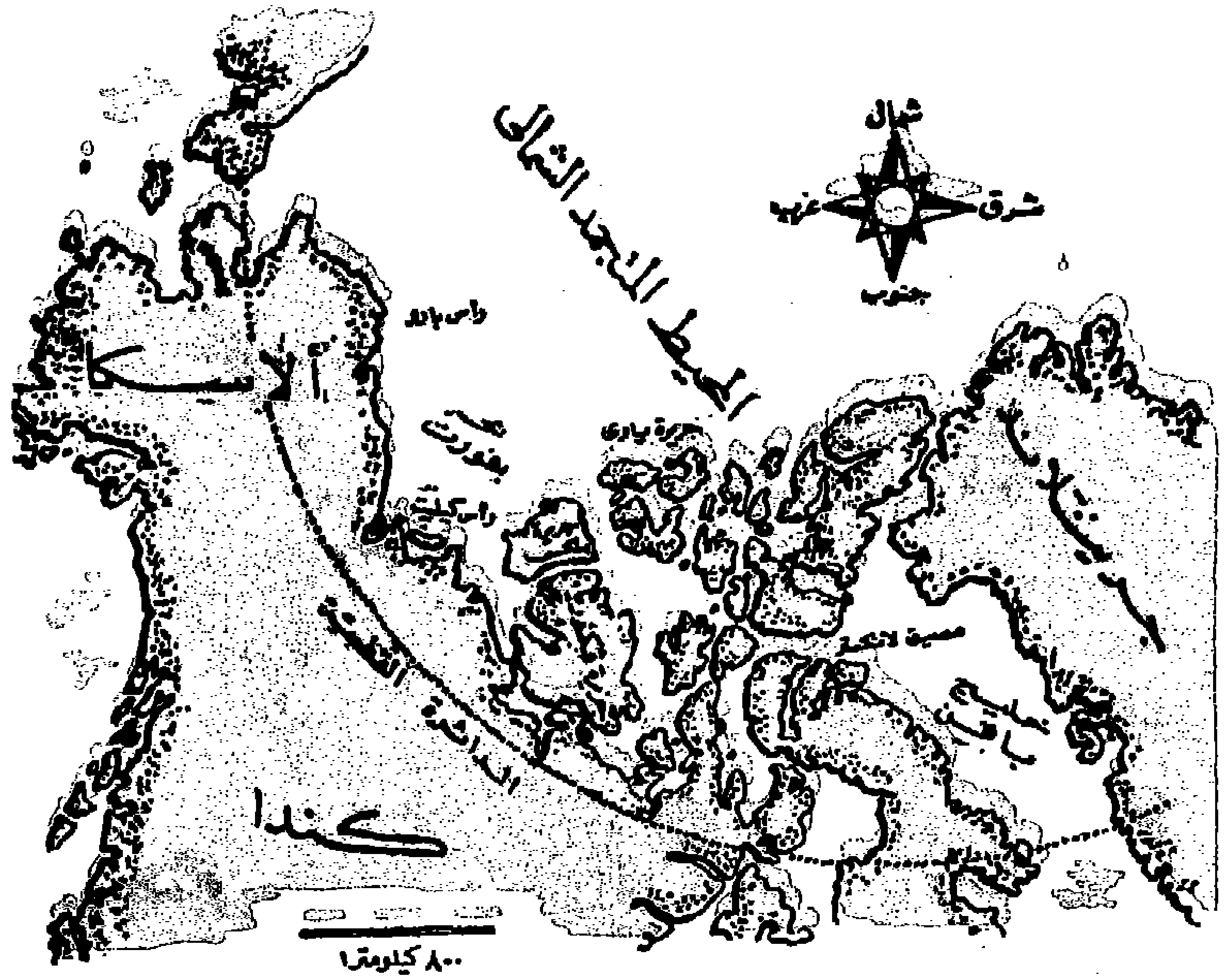

القطب لرأى قفاراً من الجليد لا انقطاع فيها تقريباً تحت سماء رمادية فى لون الحديد الصلب مزركشة برقاع سوداء حيث كانت تنعكس المياه المكشوفة من السحاب. إلا أن الجليد الذى كان يراه لا يشبه ثلج الانزلاق أو احتفالات الشتاء . إنما هو كيلومتر بعد كيلومتر من سلسلة جبلية مصغرة انبثقت منها كتل ثلجية عظيمة وصل ارتفاعها إلى ارتفاعات المنازل وملئت الانخفاضات التى بينها بقطع مبعثرة غطاها الجليد المنفوش .

ذلك هو العالم المفزع الذى أزمع دخوله ستيفانسن وصاحباه مزودين بزلاقة واحدة وستة كلاب قبل هبوب عاصفة عاتية فى ٢٢ من مارس عام ١٩١٤ ، وعلى الرغم من أنه كان لديهم مؤن تكفيهم لمدة تزيد على الشهر بقليل وأن ستيفانسن قرر أن يبقوا على الجليد عدة شهور إذا لزم الأمر . فلقد كان يعتقد أنه يمكن لفريق صغير من الرجال أن يعيش أى فترة زمنية مهما كان طولها

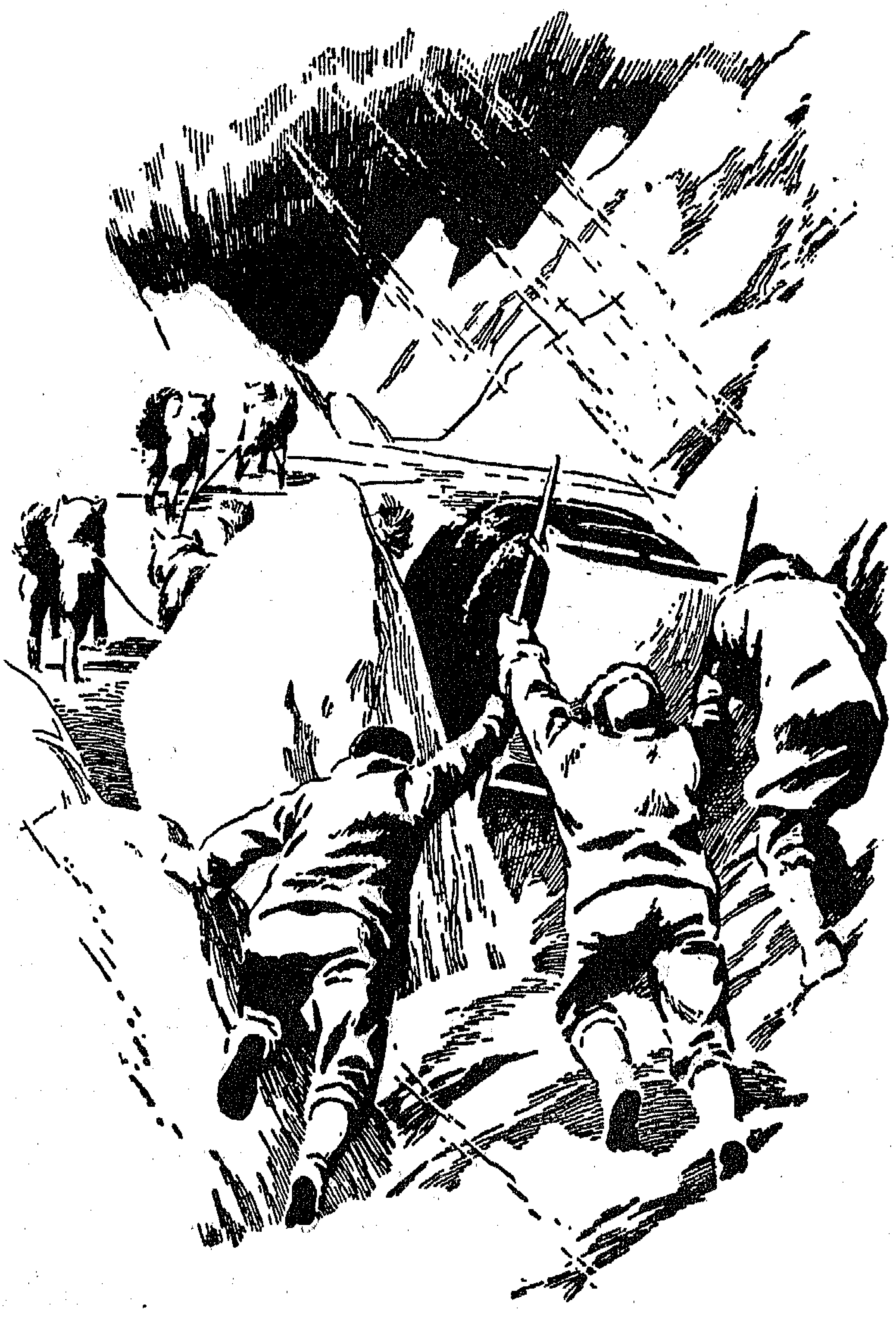

إنما هو كيلومتر بعد كيلومتر من سلسلة جبلية مصغرة

فى المنطقة القطبية لو زود الفريق بالملابس المناسبة والمعدات العلمية ومعدات الطهو والأسلحة النارية والذخيرة .

وهناك كان أعضاء القسم الجنوبى من البعثة الذين لم يوافقوا ستيفانسن على رأيه ولم يترددوا فى التصريح بذلك ، ولقد شعروا ، بل عبروا عن شعورهم علنا ، بأن قائدهم كان غير متزن قليلا . كما أنهم اعتقدوا أيضاً أنه مقدم على نوع من الانتحار غير المجدى بطريقة مسرحية .

وكان ستيفانسن قد طلب قبل رحيله إرسال السفينة « النجم الشمالى » لمقابلته عند جزيرة بانكس ، تلك الجزيرة الكبيرة التى تقع إلى جانب الشاطئ الشرقى لبحر بيوفورت ، ولما لم يعد بعد بضعة شهور قرر معارضوه فى القسم الجنوبى أنه من العبث إرسال السفينة ، فما الداعى إلى المخاطرة بسفينة جيدة فى الجليد إذا كان فريق الزلاقة قد لقى حتفه فعلا ، ومن المؤكد أنه لن يعثر لهم على أثر مطلقاً ؟ إنها كانت عملية حسابية بسيطة . فلقد أخذ ستيفانسن معه من الطعام ما يكفى لمدة أربعين يوماً ، وها هو قد مرّ على رحيله مدة أطول من ذلك بكثير فكيف يمكن أن يكون حياً ؟

لنلق بنظرة على الجليد ونر ماذا كان يحدث للمستكشف « غير المتزن » وفريقه ، فعندما أقلع ستيفانسن من شاطئ ألاسكا صاحبته كلاب عديدة ورجال ذوو خبرة حملوا معهم المزيد من المؤن ، وفى السابع من أبريل أرسل القائد تلك الفرق لتعود إلى الشاطئ على بعد ٨٠ كيلومتراً ومعها خطابات تحوى خططه . وجاء فى الخطابات أيضاً تعليمات « للنجم الشمالى » بأن تُحمَّل بالذخيرة والزلاقات والمعدات العلمية ، وأن تبحر نحو الشمال على طول شاطئ جزيرة بانكس فى أوائل الموسم ثم تبحث عنه بين الجزر الشمالية .

ثم اتجه فريق ستيفانسن الدائم نحو الشمال الشرقى إلى المجهول ، وكان الفريق يتألف من القائد نفسه ، وستوركر ستوركرسون ، وأول أندريسين وزلاقة تزن ٩٠ كيلوجراماً محملة بمعدات وزنها ٤٥٠ كيلوجراماً يجرها ستة كلاب .

وفى أول يوم بلغ ما قطعوه مئات من الياردات فقط عندما وصلوا إلى شق

فى ثلج ظهرت منه المياه مكشوفة فاضطروا إلى التوقف ، وفى اليوم الثانى قفل ذلك الشق ، ولكن الرجال والكلاب تمكنوا من قطع ميل واحد فقط صادفوا بعده شقاً ثانياً فاضطروا لإقامة معسكرهم وانتظروا فيه . وفى اليوم الثالث قطعوا ثلاثة كيلومترات نحو الشمال ، لكن سقوط الجليد والريح العالية التى ازدادت قسوة أجبرتهم على التوقف وإقامة معسكرهم .

وبينما كانت الرياح تزأر حول الخيمة الخفاقة كان المستكشفون الثلاثة مستلقين داخلها ينصتون لقرقعة الثلج المتشقق وارتطام الكتل الضخمة المتساقطة من الجروف مدفوعة بضغط الريح . وظلت تلك الجروف التى بلغ ارتفاعها فى بعض الأحيان ٩ أو ١٢ متراً ترتفع حول الخيمة . وكانت فى بعض الأحيان قريبة جداً من الخيمة ، بحيث لو أن كتلة كانت قد سقطت من قمتها المتحركة لسحقت الخيمة بمن فيها من كلاب ورجال وزلاقة بنفس السهولة التى تسحق بها ذبابة .

وفى ذلك الظلام الزائر مرّ بالخيمة دب قطبى على بعد خمسة أمتار منها وعلى بعد متر ونصف متر من الكلاب ، كما دلت عليه آثاره التى وجدت فى الصباح ، ولقد كانت العاصفة مخيفة لدرجة أن الرجال لم يحسوا بمرور الحيوان الضخم وكذلك الكلاب . والظاهر أنه لم يدر بما فاته من أكلة شهية .

وبعد انتهاء العاصفة التصق الثلج بعضه ببعض بالتجمد ، ولقد جعل ذلك السير عليه أقل خطراً إلى حد ما ، ولو أنه كان أشبه بمحاولة عبور الغابة بالانزلاق على قمم الأشجار .

وكان الرجال الثلاثة يسبرون غور البحر من تحتهم بانتظام فى أثناء تقدمهم شمالا ، فوجدوا أنه يزداد عمقاً كلما تقدموا ، حتى أصبح فى النهاية أعمق من أن يقاس بجهاز سبر الأعماق الذى كان معهم والبالغ طول سلكه ١٣٥ متراً . فواصلوا سيرهم باذلين جهدهم لقطع أكبر مسافة ممكنة على الثلج قبل أن تتمكن شمس الربيع الدافئة الخطرة من جعل الثلج الذى تحت أقدامهم رخواً. ونظراً

وأوقفتهم عن المسير المياه المكشوفة

لحاجتهم إلى الإسراع لم يحاولو صيد الحيوان لطعامهم إلا عندما كانوا يستهلكون ما تحمله زلاقتهم من المؤن .

وبعد مضى شهر وهم على الثلج بينت أرصادهم أنهم كانوا على بعد ٣٢٠ كليومتراً فى عرض البحر منحرفين قليلا إلى الشمال الشرقى من نقطة البداية ، ولم تكن هناك أى علامة على وجود أرض يابسة . وكان المحيط يتزايد فى العمق ، وبدا الثلج الذى كانوا سائرين عليه منحرفًا قليلا نحو الشرق .

وفى الخامس والعشرين من أبريل قرر ستيفانسن السير أثناء الليل والاستراحة فى أثناء النهار ، إذ لم تكن الليالى حالكة الظلمة ، كما أن ظروف السير على الثلج كانت أحسن تحت الشمس الضعيفة . لكن سرعان ما أصبح واضحاً أن الربيع كان أطول مما يسمح بمواصلة السفر الآمن على الثلج إلى ما شاء الله . فالشقوق المائية التى كانت تتجمد فى مارس بحيث يمكن عبورها بوساطة الزلاقة والكلاب رفضت فى أواخر أبريل أن تلتئم إلا من قشرة ثلجية ضعيفة لا يؤمن

السير عليها .

وكان على ستيفانسن أن يحزم أمره في هذا المكان الذى يبعد ٣٢٠ كيلومتراً عن أى أرض حوله والذى لم تطأه قدم إنسان أو إسكيمو من قبل ، فهل كان ينبغى له أن يعود من حيث أتى ، علماً بأن الثلج كان يزداد رداءة يوماً بعد يوم ؟ أم يتجه شرقاً نحو جزيرة بانكس أو جزيرة برنس باتريك طبقاً لخطته التى رسمها من قبل ؟ وكان عليه فى هذه الحالة الأخيرة أن يخوض فى جزء من البحر لم تمخره سفينة من قبل ، فهو بذلك مجهول حتماً ، ويصلح أن يكون مادة مناسبة للاستكشاف .

وكان قرار ستيفانسن هذا الذى لم يرتح إليه صاحباه ، يعنى قضاء ستة أسابيع أخرى على الأقل فوق الثلج . وكان الطعام الذى جلبوه معهم يكفيهم لبضعة أيام فقط ، هذا ، علماً بأنهم لم يروا إلا القليل من سباع البحر والدببة منذ مدة . ومع كل ففى السابع من مايو ظهر سبع بحر بعيداً جداً ، وعلى ثلج رخو جداً ، إلا أنه كان سبع بحر ، وبدلا من إضاعة الوقت فى محاولة ميئوس منها للحصول على سبع البحر جلس الرجال الثلاثة وأكلوا أكلة كبيرة من طعامهم الذى كان يختفى بسرعة ، لعلمهم أنهم كانوا مقدمين مرة أخرى على موطن لسباع البحر ولم تعد لهم حاجة إلى تخزين الطعام ثانية .

ولم تسنح لهم فرصة الحصول على أول سبع بحر إلا بعد أكثر من أسبوع ، لكنهم بحصولهم عليه توافر لهم الوقود من زيته والطعام من لحمه . وبعد ذلك الوقت لم يشعروا بالجوع مرة أخرى على الإطلاق . بل لقد اضطروا ، فى الحقيقة ، إلى البقاء فى المعسكر يوم ٢١ من مايو دون مواصلة السفر ، لأنهم كانوا قد أكلوا أكثر من اللازم فى اليوم السابق !

والآن وقد أصبح الدفء يتزايد يوماً بعد يوم ، كانت شقوق المياه المكشوفة تزداد اتساعاً كما كانت تتزايد عدداً ، وقد كانوا يعبرون تلك الشقوق بلف الزلاقة فى قماش سميك غير منفذ للماء صانعين بذلك قارباً من الزلاقة . أمكن

استخدامه فى نقل الرجال والكلاب والمعدات على سطح الماء . وفى الثانى والعشرين من مايو ، وكان قد مضى عليهم شهران وهم فوق الثلج ، بدأت الكتل الثلجية تتحرك غرباً بعيداً عن الأرض التى كان يقصدها المستكشفون ، ولقد تمكنوا من السير شرقاً لفترة من الزمن فأفلحوا بذلك ، وبعد مجهود كبير من الاحتفاظ بموقعهم كأنهم ساكنون .

وفى الرابع والعشرين من مايو وقفوا تماماً على جزيرة ثلجية كبيرة بلغ سمكها ١٥ متراً ومساحتها حوالى ١٠ أو ١٢ كيلومتراً مربعاً ، وكانت محاطة من جميع الجهات بمياه مكشوفة واسعة وهائجة بدرجة لم تمكنهم من عبورها على الزلاقة الملفوفة بالقماش السميك .

وكان ستيفانسن يعلم أنهم يمكنهم ركوب تلك الجزيرة الثلجية العائمة إلى ما شاء الله دون أن يخشوا تصدعها ، ولكن ذلك يعنى أنه كان عليهم أن يذهبوا إلى حيث ذهبت حتى تتجمد فى بحر ثلج فى الشتاء التالى . ومعنى ذلك أنه كان عليهم قضاء الصيف بل ربما الشتاء أيضاً حيث كانوا . وكان عليهم أن يخزنوا فى أثناء الصيف سباع البحر الكافية لتزويدهم بالطعام والوقود فى زمن الشتاء المظلم حيث يستحيل الصيد .

وكان هناك الوفير من سباع البحر حولهم ولكنها كانت صعبة الصيد وكان هناك أيضاً ، كما هى العادة فى وجود سباع البحر ، مجموعة من الدببة القطبية غير المسالمة ، دأبت على التسلل نحو الكلاب لاقتناصها . على أنه بحلول الثالث من شهر يونية كان الرجال قد قتلوا خمسة دببة .

وفى الخامس من يونية تمكن الرجال من عبور شق مائى نحو الشرق بعد أن انجرفت بهم الجزيرة ١٤٤ كيلومتراً بعيداً عن خط سيرهم ، ونقلوا عبر الشق ٤٥ كيلوجراماً من اللحم الأحمر والدهن إلى كتلة ثلجية أصغر . وتمكن الفريق من السفر المتصل فى الاتجاه الجنوبى الشرقى ولو أنه كان بطيئاً ، وذلك بالسير فى الاتجاه الشمالى الشرقى !

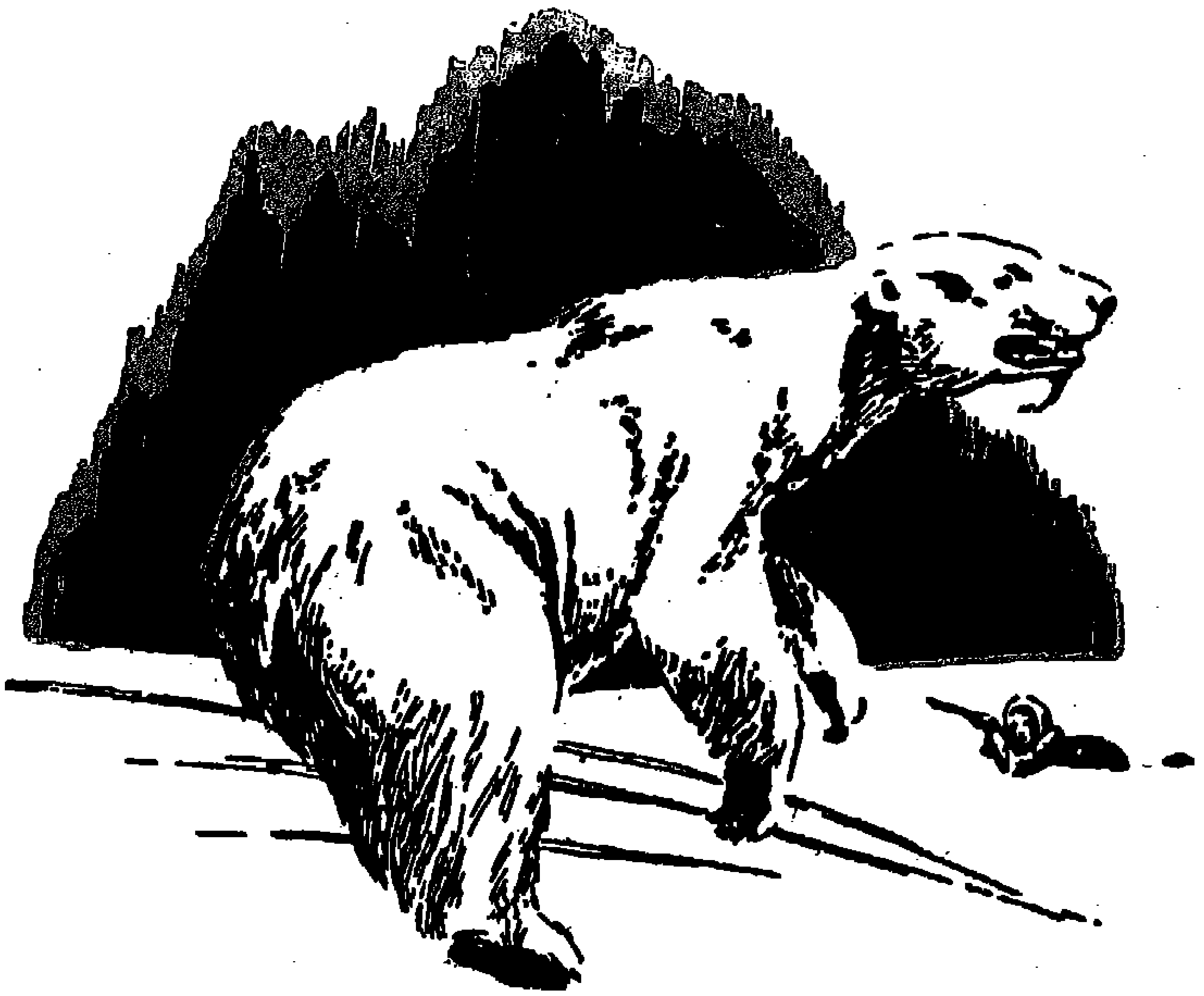

على أنه بحلول الثالث من يونية كانوا قد قتلوا خمسة دببة

وفى الثانى والعشرين من يونية ، وبعد مضى ثلاثة أشهر على تركهم ألاسكا ، نظر ستيفانسن نحو الشرق وظن أنه رأى حدود أرض يابسة . وفى اليوم التالى ظهر الشاطئ بوضوح فقد كان بعده عنهم لا يزيد على ١٦ كيلومتراً ! ولم يكن ذلك أرضاً جديدة إنما كانت جزيرة النرويج وهى قطعة صغيرة من الأرض متفرعة من الشاطئ الغربى لجزيرة بانكس . وعلى الرغم من أن حدودها لم تكن بالشكل الذى ظهرت به على الخارطة فإنها كانت هى بالضبط ما كانوا يبحثون عنه .

وكان يغطى ثلج جزيرة النرويج مساحات من البرك المائية والجليد اللين العميق على التبادل ، وفيها خاض الرجال وعامت الكلاب وطفت الزلاقة . وكانت رحلتهم مضنية إلا أن ذلك الثلج كان قريباً من الأرض ، وبذلك كان مأموناً ، فلم يكن لينجرف بالمستكشفين ويأخذهم إلى حيث لا يرغبون الذهاب .

وفى الخامس والعشرين من يونية خطا الرجال الثلاثة نحو الشاطئ ، بعد أن قضوا ٩٦ يوماً فى البحر سافروا خلالها ١١٢٠ كيلومتراً . (ليقطعوا مسافة فعلية تبلغ حوالى ٨٠٠ كيلومتر) .

وهناك وجدوا الحشيش الأخضر والأزهار بوفرة كبيرة ، والطيور والنحل والذباب وآثار رنة أمريكا الشمالية . وما إن وطئت قدما ستيفانسن الأرض اليابسة حتى قتل عدداً من الحيوانات وأقام معسكراً فى مكان سقوطها . ولحم الرنة الأمريكية لذيذ الطعم للغاية ، ولقد لاقى استبدال سبع البحر والدب به ترحيباً واستحساناً .

ولقد قضى الرجال الثلاثة صيف المنطقة القطبية الشمالية الجميل كله فى صيد الرنة الأمريكية ، وتجفيف لحمها للأيام المقبلة ، ودبغ جلودها للملابس الشتوية . واستكشفوا جزيرة بانكس ومسحوا جزءاً كبيراً من شاطئها الغربى ، وكانت أنظارهم متجهة باستمرار نحو الجنوب حيث كانوا يتوقعون مجئ « النجم الشمالى » لملاقاتهم .

وانتهى شهر أغسطس — وهو أحسن موسم للملاحة فى حذاء الشاطئ — دون أن تصل السفينة « النجم الشمالى » وبدأ يصبح عدم وصولها على الإطلاق أمراً مؤكداً . واعتقد ستيفانسن أن شيئاً قد حدث لها ، وهو على علم بحقيقة الأمور وقتئذ ، فلم يخطر بباله ألبتة أنها لم ترسل لملاقاتهم على الإطلاق .

وفى أول سبتمبر بدأ الرجال القلقون الثلاثة السير جنوبياً على شاطئ جزيرة بانكس متجهين نحو نقطة تعرف برأس كيليت ، حيث كان يوجد مأوى صالح للسفن إذ ظن ستيفانسن أنه إذا كانت السفينة قد صادفت بعض المتاعب فمن المحتمل أن تكون قد تركت لهم رسالة ، أو أودعت لهم المؤن فى مخبأ فى ذلك المكان .

ووصل المستكشفون إلى رأس كيليت فى الحادى عشر من سبتمبر ، وهناك ثبطت عزائمهم تماماً ، لكن شعورهم تغير عندما رأوا أثر قدم ، ولاحظوا ظهور

وإذا بالآلة التى كان ممسكاً بها تسقط من يده

سارية مركب أعلى الرأس المنخفض إذ كان فى ذلك دلالة على احتمال تحسن الأمور . وعندما وقع نظر ستيفانسن على السفينة وجد أنها لم تكن هى التى أمر بإرسالها لمقابلته ، إنما كانت « مارى ساكس » إحدى السفينتين المخصصتين للقسم الجنوبى . وكانت قد سحبت من الماء وفرغت حمولتها . وأمكن رؤية رجال عديدين يقيمون منزلا بالقرب منها .

وقد ظن ستيفانسن وهو يقترب من السفينة أن الرجال رأوه لكنهم استمروا فى عملهم غير ملتفتين إليه على ما يظهر . فواصل اقترابه وهو فى حيرة ، وفى النهاية رفع أحد الرجال بصره ، وإذا بالآلة التى كان ممسكاً بها تسقط منه وقد فغر فاه وجعل يحملق فيه غير مصدق ما يراه . وعندما تحقق ممن رآه صاح : « ستيفانسن حىّ . إنه هنا ! » .

والقول بأن دهشة الرجل أصابت ستيفانسن بالحيرة فيه تخفيف ، ألم يقل ستيفانسن إنه كان سيصل هناك حوالى ذلك الوقت . فما سبب رد الفعل الغريب إذن ؟

والحقيقة هى أنه لما كان القسم الجنوبى قد دخل فى روعه أن ستيفانسن مات فكان من المنطقى أن يتولى القيادة الرجل الذى يليه ، وهو الدكتور أندرسن ، وتضمن ذلك إلغاء أوامر ستيفانسن وتعليماته ومن بينها إرسال « النجم الشمالى » إلى جزيرة بانكس حاملة الرجال والمؤن والمعدات . وأراد الدكتور أندرسن الاحتفاظ « بالنجم الشمالى » فأرسل « ساكس » بدلا منها ، هذا على الرغم من أن ستيفانسن كان يشعر أن رفاصيها التوأمين كانا يحدان من صلاحيتها للعمل فى الثلج . وقد صدق شعوره ، إذ فقدت السفينة أحد رفاصيها فى الثلج وتسربت إليها المياه لدرجة أنها كانت تفرغ ماءها لمدة أربعين دقيقة فى كل ساعة ،وكانت أقصى سرعتها ثلاثة كيلومترات فى الساعة فقط . وعلى ذلك فقد سحبها بحارتها إلى الشاطئ ، ناسين أنه ليس لديهم ألواح خشبية قوية لإزلاقها فى الماء ثانية ، وكان فى ذلك نهاية السفينة فقرر بحارتها إقامة منزل ليكون مأوى شتوياً

لهم آملين أن يلتقطهم أعضاء القسم الجنوبي فيما بعد .

وحيث إن فريق الجنوب اعتقد أن ستيفانسن مات فلم يروا ضرورة لإرسال المعدات التي طلبها ، وكان هيوبرت ويلكنز أحد مؤيدى ستيفانسن فى البعثة على ظهر السفينة « ساكس » ، ولكن حتى هولم يصدق أن القائد يمكنه الصمود فعقد العزم على البحث عن آثار ستيفانسن على الشاطئ ، ولكن لم يكن يراوده أمل حقيقى فى العثور على أى شىء .

وعلى الرغم من أن « مارى ساكس » كانت محملة بكمية من المؤن فإنها لم تكن لتكفى الفريق برجاله وكلابه طوال الشتاء بأكمله : وكانت هناك حاجة إلى اللحم « الطازج » إلا أن الوقت كان بدأ يصبح متأخراً ، فحول ستيفانسن اتجاهه وذهب للصيد لهم – ليطعم المغاث مغيثيه !

وبعد قضاء الشتاء فى رأس كيليت ، فى إعداد الطعام والملبس للعمل فى أثناء السنة ، بدأ ستيفانسن رحلته إلى الشمال ثانية ، ومرة أخرى استخدم طرقه فى السفر ذاتها ، تلك الطرق التى ظل قسم الجنوب يعتقد (واستمروا فى اعتقادهم سنة أخرى) أنها أدت إلى وفاته ، ولم يعد هو ورفاقه إلى البر حتى سبتمبر عام ١٩١٧ .

وظلوا فى الميدان طوال المدة من مارس ١٩١٤ حتى ذلك التاريخ يستهلكون ما كان لديهم من المؤن حتى ينفد ثم يعتمدون بعد ذلك على المنطقة فى الطعام والوقود والمأوى (فى صورة بيوت جليدية) والملبس . ولقد اكتشفوا فى الفترة ما بين خريف ١٩١٤ وخريف ١٩١٧ أراضى جديدة كثيرة ، من بينها الجزائر المعروفة الآن بأسماء بوردن ، بروك ، لويد ، وماكينزى كنج وميين ، ورسموا خارطات للشواطئ وغيرها مما كان سبق رسمه خطأ . وتمكنوا كذلك من إثبات أن هناك أرضاً حددت على المصورات « الخارطات » لم يكن لها وجود فى الحقيقة .

وعندما ذهب ستيفانسن شمالا من رأس كيليت فى ربيع ١٩١٥ عرف أن الباخرة « كارلوك » قد سحقتها الثلوج على بعد مئات الكيلومترات نحو الغرب ،

ولقد اعتقد أن بحارتها والعاملين عليها وصلوا سالمين إلى الشاطئ مستخدمين طرق السفر على الثلوج التى وضعها بنفسه ، ولم يكن يعرف بمأساة ركاب السفينة وفقد بعضهم الذى كان من المحتمل تفاديه ، إذ وجد هؤلاء الناس أنه من الصعب عليهم مسايرة الظروف التى كانت تبدو لستيفانسن كأنها جزء من عمله اليومى .

ولا يوجد فى تاريخ السفر إلى المنطقة القطبية الشمالية سجل لعمل فذّ يضاهى ما أحرزه ستيفانسن ، ولو لم تأت البعثة الكندية للمنطقة القطبية الشمالية فى ١٩١٣ – ١٩١٨ ، قبل أن تصبح الطائرة على أهبة أخذ مكانها فى أعمال المنطقة القطبية مباشرة ، لأحدثت طرق ستيفانسن ثورة فى السفر إلى المنطقة القطبية . فلقد فتحت تلك الطرق السبيل إلى عالم زاخر للمعرفة بالأراضى القطبية .

ولا يبدو الرجال بمعوزين على الإطلاق إلى عمل ما كان يعتقد أسلافهم استحالة عمله ، بمجرد ما ينقشع عن عقولهم ضباب الخرافات والعقائد التى لا أساس لها ، وحتى لو أضافت الاستكشافات والمكتشفات قدراً ضئيلاً فقط فى كل مرة لمعرفة الإنسان ، فإنها لا تزال تبرهن ، كما فعل ستيفانسن على أن المستحيل ليس خارجاً عن متناول الإنسان .

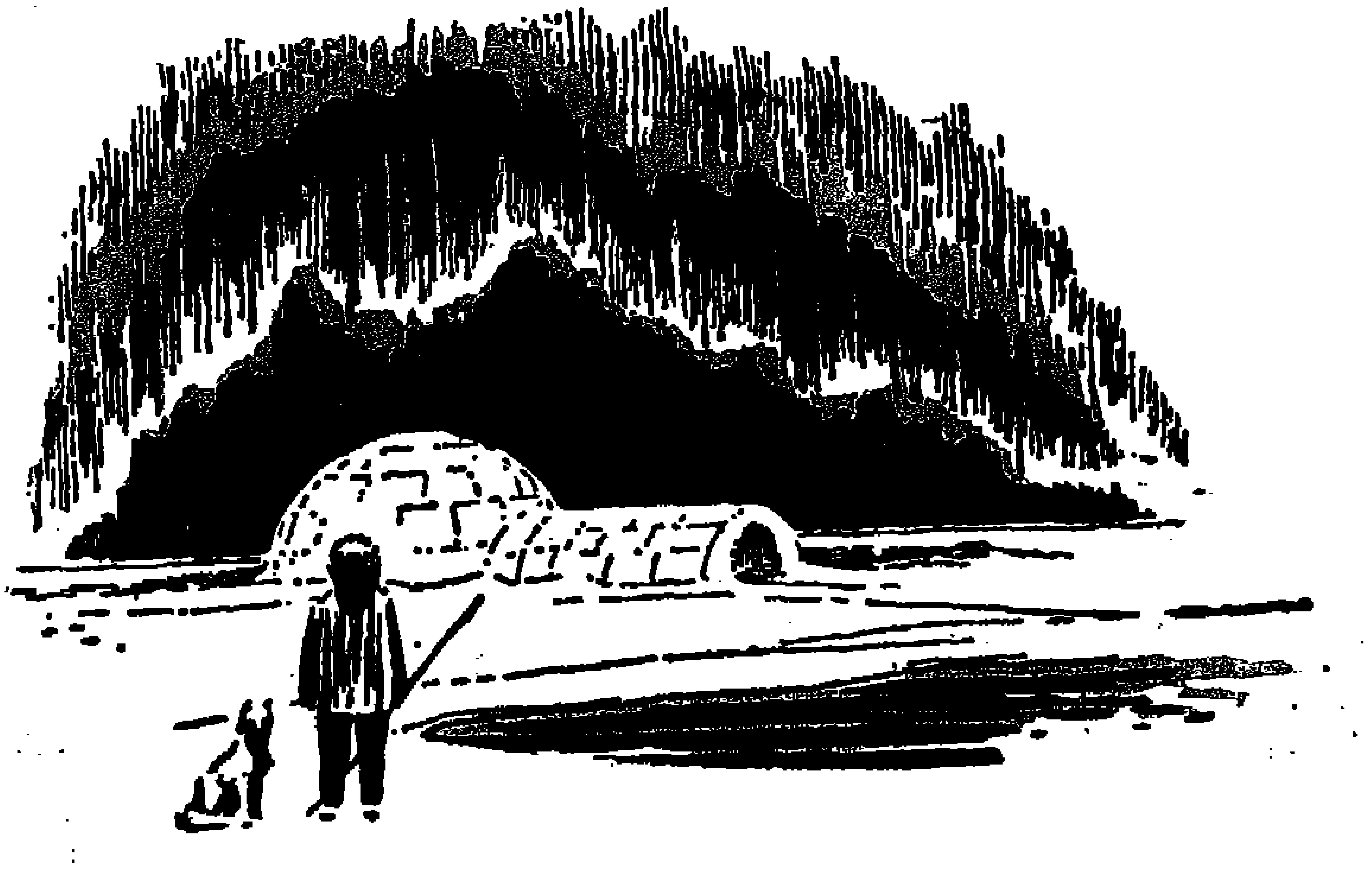

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٣٠٠٦
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3644 - 6	ISBN

١ / ٩٢ / ٢٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

يبرز فى كل عصر فئة من الرجال آتاهم الله شجاعة وإقداماً ، وحب استطلاع ، يكشف هؤلاء الرجال عن سر مدفون من أسرار الطبيعة التى حرصت على إخفائها سنين بل قروناً عديدة ، ويلاقون فى أعمالهم تلك أهوالا تقشعر لها الأبدان ، ولا يصمد أمامها إلا كل طموح ، ولولا هؤلاء الرجال لكنا لا نزال نتخبط فى ترهات الأساطير والخرافات بعيدين كل البعد عن الكثير من أمور عالمنا الذى نعيش فيه .

ويروى لنا هذا الكتاب فى أسلوب ممتع خمس قصص من قصص مغامرات أمثال هؤلاء الرجال ، فى كشفهم لأغوار المحيط ، وقهرهم لأعالى الجبال ، وكشف الستار عن سر قبر فرعون مصر توت عنخ آمون ، وتوغلهم فى الأدغال ، ومصارعتهم لحيوانات الأزمنة السحيقة ، وصراعهم للعواصف والثلوج فى بلوغهم للقطب الشمالى .

كل شيء عن

١ – الراديو والتليفزيون
٢ – الصحراء
٣ – النجوم
٤ – الأقمار الصناعية وسفن الفضاء
٥ – الجو وتقلباته
٦ – دنيا الحشرات
٧ – جسم الانسان
٨ – الطيـور
٩ – المنطقتان المتجمدتان
١٠ – البراكين والزلازل
١١ – الغريب فى عالم الحيوان
١٢ – الكهرباء
١٣ – الحيتان
١٤ – مجموعة من أشهر المخترعين ومخترعاتهم
١٥ – البحـر
١٦ – الأنهار العظيمة فى العالم
١٧ – بعض البعثات العلمية الشهيرة
١٨ – الفراشات وأبو دقيق
١٩ – الصخور المتغيرة
٢٠ – الثعابيـن
٢١ – انسان ما قبل التاريخ
٢٢ – الوحوش الغريبة فى الماضى
٢٣ – الأدغـال